الرحلة الكاليفورنية

كتاب

مادي وادي

يشتمل على رحلة الشهير اسكندر دوماس الى مدينة سان فرنسيسكو
مع وصف احوال تلك الاماكن ومحصولاتها ومعادنها لا سيما التبر
وكيفية اخراجه من المناجم ومن بطون الارض الاميركية

نُرجم بقلم الفقيرة اليه تعالى

عفيفه اُظن الدمشقية

طبع في الاسكندرية سنة ١٨٩٣ مسيحية

بمطبعة يني لاغودا كي البخارية

obeikandl.com

بسم الله المتعال

مقدّمة المترجمة

حمداً لمن انار العقول والاخلاق · واملأها من جودهِ ونِعَمِهِ · وخيرهِ وكرمهِ · ناشراً ومالئاً الدنيا والافاق · من خيراتهِ النفيسة · وذخائرهِ الثمينة المكنونة · جامعاً بقدرتهِ الالهية الامواه في البحور طائعةً لامرهِ بالتحريك والسكون · مخبئاً المعادن والتبر في بطون الارض واللجج · واهباً مخلوقاتهِ فطنةً وغيرةً وحميةً للتغرّب والعناء بجمعها · لكي يكثر التمدن والنجاح والعمران باختلاط الشعوب العديدة مع بعضها · وكلُّ امةٍ متقدمة بالمعارف تزداد حماسةً يوماً فيوماً وتسعى الى معرفة غيرها · لتسمع عن احوالها وتقرأ اخبارها · مطالعة تواريخ الاعصار السالفة والحوادث العابرة والغابرة · كيف لا والمرءُ مفطورٌ على حبّ الاكتشافات الحديثة والنوادر والغرائب الجديدة وهذا مما يزيد الاذهان نيرةً والهمة نشاطاً والبلاد فلاحاً ونجاحاً

﴿ **اما بعدُ** ﴾ فنقول هذه الداعية انني فيما انا اطالع بعض الكتب والتواريخ والنوادر الافرنسية عثرت على هذا الكتاب المفيد ووقفت على ما فيه من الفوائد الجمَّة العلمية والادبية والتاريخية وهو يتضمن سياحة الشهير اليكسي دوماس وتغرُّبهُ في بلاد كاليفورنيا ووصف ما عاناهُ من المشقات والاتعاب

فمع قصر باعي رأيت من الواجب ترجمتهُ الى لغتنا العربية مستعينةً بالله المتعال ومؤملة حسنَ قبولهِ من حضرة القرَّاء الافاضل مع غض الطرف عمَّا يرون فيه من الزلل والعفو من شيم الكرام و باللهِ العصمة من الخلل

الداعيـة

عفيفه أُظن

obeikandl.com

رسالة من البطل اليكسي دوماس الى صديقه الذي طبع هذا التأليف في اللغة الافرنسية

مونمورانسي في ٢٢ تموز سنة ١٨٥١

ايها العزيز

انني متأكد عظم الاندهاش الذي يعتريك عند انهائك تلاوة هذه الرسالة . وترى امضاء الرجل الذي الّف من الكتب عدداً يزيد عن الرسائل التي حررّها في حياته . وسيتضح جلياً لدى عينيك كل فحواها حينما تنظر ان هذه العريضة مصحوبة بمجلد ليس بقليل مُعَنون بهذا الاسم (سنةٌ على الارياف في ساكرامنتو وسان جواكان) . لكن لربما تجيبني قائلاً : هل من الممكن يا صديقي العزيز انت الذي شاهدتك منذ ثمانية ايام في مدينة باريس ان تكون استطعت الذهاب انت نفسك الى كاليفورنيا والاقامة فيها سنة من الزمان ورجعت ؟

اقرأ يا عزيزي تفهم كلّ شيء .

انت تعرف انه لا يوجد انسان يسافر او يحب العزلة و يلازم القعود نظيري . فاما اني اخرج من باريس واقطع عشرة او اثني عشر ميلاً واما اني الازم مخدعي لتأليف مئة او مئة وخمسين كتاباً .

فيوماً ما عزمت الى انجيان لاقيم فيها يومين او ثلاثة فقط وكان ذلك في الحادي عشر من شهر تموز الماضي . ولا يخلّ لك ايها الصديق انني قصدت التسلي بما ان ذلك ليس من عوائدي ولا من مزاياي الخاصة ومعاذ الله اني اكون تصوّرت هذا الفكر . ولكن كان لي شغلٌ ضروري وهو استيفاء الوقوف على حادثة جرت من مدة اثنتي وعشرين سنة في انجيان وقد اقتضت الحال ان اذكرها في كتاباتي . فخوفاً من ان اغلط في سردها رأيت ان اذهب الى تلك المحلات التي كنت حُرمتُ من رؤيتها منذ ذلك العهد واراجع النظر فيها . وقد علمت جيدا انه اكتشفَ في البلدة المذكورة على نبع ماء معدنية كالتي اكتشفت في بيرّفون وفي اوتويل لكنني جهلت التغييرات التي نشأت عن ذلك الاكتشاف في انجيان بما انها اوشكت ان تُعدّ في صف المدن العظيمة نظير جنيفا وزوريك ولوبيرن

فسافرت الى انجيان مع حراس الساعة الحادية عشرة الاّ ربع مساء و بوصولي الى المحطة الساعة الحادية عشرة تماماً شرعت اسأل هنالك عن الطريق المؤدية الى تلك البلدة . وحضرتك تفهم ايها العزيز ان سؤالاً كهذا لم يكن سهلاً على رجل باريسي او على من يقيم في مدينة باريس ما ينيف عن الخمسة والعشرين سنة ان يستغيث عند المحطة و يطلب من يهديه الى الطريق المؤدية الى انجيان

ومن ثمَّ ظنَّ المستخدم الذي سالتهُ ذلك السؤال اني استهزئُ به لكني اقسم لك ايها الودود ان هذا الفكر لم يخطر في ذاكرتي . فسُرَّ الرجل الذي كلمته واجابني بدون تكليف و بكل ادبٍ قائلاً :

— اصعد الجسر ومن هناك الى الجانب الايمن

فاثنيت عليه وفعلت حسبما قال لي ولما بلغت الجسر حوَّلت بصري الى اليمين واذا بي ارى مدينةً كنت اجهل وجودها لان انجيان لم اعرفها على هذه الحالة بل كانت مستنقعاً واسعاً مغطاةً بالقصب والاعشاب مملوَّةً من جميع اصناف الطيور نظير الكناري والخطَّاس ودجاج الماء والبط وغير ذلك مع بيتين او ثلاثة على حاجز مرتفع قليلاً . هكذا كنت اعرف انجيان وهكذا كنت اذكرها من زمن الصيد حينما ذهبت اليها منذ اثنتين وعشرين سنةً

حينئذٍ ابتدأت افتش على انجيان الحقيقية ظانّاً ان البيوت المتراكمة لم تكن الا وهمية . فقلت في نفسي « اصعد الجسر وهناك الى الجهة اليمنى » فوجدت في جهة اليمين ممرّاً صغيرًا وهو الطريق الذي وجب ان اجتازهُ ماشياً لابلغ انجيان

فتبعت الطريق واذا انا في قرب حقل تحوطهُ السياج من كل الجهات حينئذٍ قلت في نفسي ان تلك البلدة لم تكن مرتفعة بهذا المقدار ولا معدودةً بين المدن ولا مساويةً لها في عدد الشعب . فانها ليست بابيلون التي حرقها الاسكندر ولا قرطاجنة التي ردمها سكيبيون . فمن اين دخلت اليها الحراثة . ثم تحيرت ووقفت منذهلاً قائلاً ان المقاطعة التي وُجدت فيها انجيان منذ القديم ليست ههنا

وفي الحال رجعت متأثرًا خطواتي فالقيت الى جهة اليمين جسرًا

مصنوعاً من الالواح الخشبية ومنهُ وصلت الى ما بين الاشجار وظهر لي في ذلك الظل كانني لمحت الى اليسار مياه المستنقع وعمدت ان اقبلها وقتئذٍ بالغدير لكني كنت قد نسيتهُ تماماً ومع ذلك تشجعت وسرت متمماً طريقي . وفيما انا تائهٌ من مكانٍ الى آخر اذا بالمطر قد سقط بغزارة فشرعت اعدو بكل قواي لان ثيابي اوشكت تُبلّ . والبيوت ظهرت بعيدة جداً عني . وبعد الجري السريع مسافة ربع ساعة (والمياه المرافقة لي الى اليسار جعلتني ان اطمأن واتشجع لابلغ غاية سفري) وصلت الى قرب اشجار متفرقة بعضها عن بعضٍ وهناك قدرت ان الح قليلاً هيئة تلك الاماكن وعرفت انني ضللت عن المسير حيث اجتزت المسافة من جنوبي البحيرة الى شمالها . اخيراً نظرت عن بعدٍ ثلاثة انوار على شاطي الماء وهذه هي تلك البيوت التي كنت فتشت عليها عبثاً . ثم انذهلت حينما التفتُّ فجأةً محولاً باصريّ يميناً ويساراً وشاهدت قصوراً عاليةً وابنيةً فاخرة . ورايت على وجه الماء انواعاً من الطيور العديدة والجمع الغريبة تعوم مزينةً تلك البقعة بهيئة بديعة تذهل الناظرين لكنها كانت بعيدة عني . ولسوء الحظ قد ضللت في مسيري لاني تبعت الشاطئ الآخر واقتضى الامر ان ارجع الى المحطة التي سافرت منها واطوف حول البحيرة وبعد ربع ساعة وصلت الى البنيان المشتهاة التي تمنيتها وفتشت عليها بتعب كلي متشوقاً لرويتها

وعند وصولي التقيت بمدير عجلةٍ سائرٍ فسألته عما اذا كنت قد بلغت مقصودي بالواقع . فاجابني بالايجاب . ثم وقفت عند النزل المدعو نالما وهو غاية مناي لان لي معرفة مع صاحبه وعزمت ان ادخلهُ حالاً . فقرعت الباب اذ كانت الابواب جميعها مغلقةً مقفلةً ولم يرد احد عليّ . وبعد انتظاري

هنيهة رأيت واذا بدرفة نافذة صغيرة قد فتحت ومدّت ذراع منها ثم ظهر راس عربجي محتدم غيظاً وسألني قائلاً

— ماذا تريد

— انني اطلب اوضةً وسريرًا وارغب العشاء عندكم

— فاجابني ان اللوكندة مزدحمة جداً واغلق الشباك بشدة وقال متنغصاً انه يطلب عشاء ومنامةً في الساعة الحادية عشرة ونصف

ففكرت في نفسي قائلا ما دام الوقت كذا والنزل هنا مزدحم فانا اذهب وافتش على ماوًى في مكان آخر .

وبينما انا في ذلك الفكر لمحت امام عينيّ بناية شاهقة عظيمة تسطع الانوار من داخلها وترن بصدى اصوات مغنين مجتمعين فيها . فدنوت منها وقرأت على الباب هذا العنوان مكتوبًا باحرف ذهبية : اوتيل د، كاتر بافيون (اسم النزل) حينئذ قلت

— اني بدون ريب اجد موضعاً ههنا لابيت فيه

ودخلت واذا الانوار تتلألأ في الطبقات السفلى واما بقية الطبقات فكانت سوداء مثل الظلمة الحالكة . ثم فتشت وناديت شخصا لاكلمه ولكن عبثا لان اللهو والغناء والرقص والطرب كان يشغل الجميع .

اخيرًا مشيت قليلاً الى اخر الدهليز واذا بخادم خرج لمقابلتي فسالته

— ايمكنكم يا صديقي ان تعدوا لي مأوًى عندكم

— فاجاب الخادم : اعن هنا تسألني ؟ فانه لا يوجد موضع . ولكنك اذا احببت ان ترقص فلك ان تدخل . فوجدت ذلك الجواب مماثلاً لجواب العربجي بالحماقة . ومن ثم ذهبت في طريق اخرى . فقابلت وانا سائر بائع خمر في دكانه فدلني ان اذهب الى اوتيل انجيان . ومع اني

قرعت بابه بعزم لم أُجَب فقال لي بائع الخمر هذه هي عوائد الاب برطران حين تزدحم الناس عنده ·

فصرخت بغيظ · ما هذا السلوك ؟ افلا يتنازل الى مجاوبتي على الاقل ؟

— قال البائع بماذا يجيبك مادامه لا يقدر ان يضيفك عنده

فلما سمعت ذلك لم استطع ان اجب ببنت شفة بل طأطأت راسي وقلت في نفسي انه لا يخطر على بالي عدم وجود ماوىً في انجيان للمبيت فيه ليلةً · فعزمت على الذهاب الى جهة مونمورانسي تحت الغيث المتزايد · فتصور اذا ايها العزيز كم كانت تلك المشقة صعبة عليّ ·

ثم تبعت الطريق المستقيم المؤدي اليها لانها لم تزل باقية على احوالها القديمة حينما توجهت اليها من مدة عشرين سنة · فوصلت المدينة وجعلت اطوف فيها الى ان استطعت البلوغ الى النزل المسمى (شيفان بلان) وذلك في الساعة الواحدة بعد نصف الليل حين سمعت ساعة المدينة تدق · وحينئذ تجاسرت وطرقت الباب وقلت في نفسي ماذا يا ترى تكون المجاوبة ؟ أَلعلّهم يطردوني كما فعل الآخرون بي ؟

واذ ذاك سمعت حركة ونظرت نورًا ساطعًا من الداخل والباب قد فتح بدون مجاوبة · وظهرت خادمة متبسمة ولم تبالِ باني ازعجتها في نومها واسمها مرغريتا · فتامل يا عزيزي كيف ان اسمها لم يبرح عن ذهني الى الآن ·

— فقالت اهلا ومرحبًا يا سيدي هوذا انت بحالة يرثى لها فهل تريد ان تدخل وتنشف ملابسك ؟

— فاجبت طلبها بثناء وبطيب خاطر وارتها الحوائج التي كانت معي لاجل تغيير ثيابي ···· فقالت

تفضل ادخل واذا احتجت شيئاً فيقدّم لك من عند الخواجه ليدوك

حينئذ شكرت الله متهللا وقلت حقاً ان ماوي الغربآء هو ههنا . وفيما انا على ذلك واذا بالخواجه ليدوك قد نزل وراء مرغريتا وقد عرفني من اول لمحة ومن ثم كانت ضيافتي مكرّمة جدا . فادخلوني الى اجمل منزل عندهم واعدوا العشا والسرير. فما كان مني الا الثناء الجزيل على معروفهم

وانت تفهم يا صديقي انه ينبغي لي ان اقص عليك ما جرى بتمامه . لانه من يراني في الساعة الواحدة بعد نصف الليل سائرا على قارعة الطريق اعدو من مكان الى الآخر طالباً ماوى وثيابي مبتلة بالماء الذي خرق فيّ الى العظام ولا يتاثر لهذه الحالة ؟ اولا يظن بل يتاكد وجود ثورة في باريس في ٣١ من شهر ايار . ومع ذلك اني اشكر الله على ان هذه الاخبار ليس لها من اثر .

فطمنت الخواجه ليدوك واخبرته اني انما سافرت تمضية يومين او ثلاثة في انجيان . ولكن قلة وجود المنازل جعلتني ان اوصل مسيري ليلاً الى مونمورانسي . فعندما طرق كلامي في اذنيه تنهد تنهدا عميقاً ... وشدّد عليّ لاقيم عنده واشتغل في تلك البلدة . فافهمته ان سفري الى انجيان لم يكن على سبيل التنزه بل لاشغال ضرورية . ووعدته بالاقامة ثمانية ايام عوضاً عن الثلاثة التي قصدت بها التغيب عن بيتي . فقال لي:

— اذا بقيت ثمانية ايام فتستطيع ان تجد شغلا مفيدا حسنا في اثناء اقامتك .

— فقلت له : وما هو ؟ فاجاب :

— هو السياحة الى كاليفورنيا .

— قلت له : وما هذا الكلام ؟ هل انت احمق ؟

— فقال سننظر غدا ما يجد من الحوادث الجديدة

ثم قلت له ان سفري مستحيل . فكيف يمكني التوجه ؟ ومع من اتوجه ؟ واي رفيق يقودني الى كاليفورنيا و يرجعني الى هذه الديار ؟ فقال :

— عندي كل ما يأول لصالحك . فانه قد حضر هنا امس شاب تغرب هنالك وعرف جيدا احوال تلك البلاد ثم عاد من سان فرنسيسكو الى الصين و بوغاز ملقا ونيكالا واخيرا الى راس الرجاء الصالح . فقلت له :

— هذا يفيدني جدا على قولك اذا رافقني . ولكن بما ان لي كلاما في هذا الخصوص ارجوك ان تسمح لي لاستريح هذه الليلة من الاتعاب التي قد اضنكتني وانشاء الله نتكلم غدًا في هذه المسالة .

ففي الغد تقدم الخواجه ليدوك والشاب الذي كلمني عنه وقد كان بالواقع رجلاً بطلاً تلوح على وجهه سمات النجابة والذكاء والبسالة وهو في سن السادسة والعشرين من عمره . وقد اثرت في وجهه حرارة الشمس لانه اجتاز خط الاستواء اربع مرات .

وما تحدثت معه برهة وجيزة الا وشعرت بلذة من معاشرته وسالته ان يسطيني جرنال سفره لاقراه . فتلوته واذا به من الفائدة واللذة ما يعجز القلم عن وصفه .

واسمح لي الان ايها العزيز المباشر طبع هذا الكتاب ان ابين لك ما اردت كتمه في تلك الليلة عن الخواجه ليدوك بشان كاليفورنيا . وهو ان البلاد لا تعد عظيمة الا بوجود التمدن ولا تنشى الا من عدمه . فكما ان انجيان نمت وعاشت كذلك مونورانسي اضمحلت وهدمت وماتت . لان البلدة التي لا يسود فيها التمدن تقع في الهزال والتحول وتهبط حالها

ثم تنطفئ وكما ان مونمورانسي ردمت من قلة حرارة سكانها كذلك عمرت انجلترا مذ وافاها السعد وشرعت انوار التمدن تسطع فيها . فكم من بأس وشقاء وبؤس وعناء تتكبد المحرومة من هذه الانوار ؟ . . .

وانت تفهم يا عزيزي اني لا افتكر الا في تقدم هذا التمدن اعني الشمس العقلية التي بدونها يستمر الانسان في ليل مظلم حالك . فكم وكم بذلت من الوقت حيث لم يكن عندي شيء ذو اهمية للمطالعة او الكتابة بالبحث في خارطة العالم . وكم كنت اطالع في ذلك الكتاب الواسع المحتوي على الوف من الصفحات وفي كل منها امعن النظر بالتدقيق واري نمو او هبوط كل مملكة وسلطنة . وعلى ماذا تظن اني كنت افتش ؟

أعلى اسماء الملوك والسلاطين كملوك الهند الغير المعروفين ام على قصة مينيس المصري ام بيلوس الاشوري ام على ديدون ملكة قرطاجنة ام على الاسكندر المكدوني وقيصر الروماني ام على كلوفيس الفرنسوي ومحمد العربي ام على نيوتون الانكليزي وواشنطون الاميريكي ؟ كلا كلا لم افتش على تاريخ الاولين ولا الاخرين بل طلبت ان ارى تلك الام الحنونة التي حملتهم في احشائها وغذتهم من لبنها اعني لبن العلوم والمعارف . هذا هو التمدن عينه الذي رفع تواريخ عظماء الامم واهبطها

انظر كم عملها واسع وكيف انها لم تبالِ باجتياز البواغيز والجبال والانهر والاوقيانوسات العظيمة التي لم تردعها ولا اوقفتها عن عملها . هذه هي الشمس العقلية — ولدت في المشرق حيث يبزغ النهار ثم سافرت من الهند تاركة وراها خرابات المدن العظيمة وقطعت بوغاز باب المندب مودعة على شطيهِ سبا البيضاء والسوداء ولاقت النيل ونزلت معه الى الوادي المصري العظيم ثم بلغت الفرات رافعة مدينة بابل ونينوى وصور وصيدا

الى ان غطست في البحر فرمت ذراعها الايمن في طرف اسيا والايسر في فرطاجنة في راس افريقيا ثم اليونان واثينا مع اثني عشرة مدينة عظيمة اخيرا بانتهائها الى رومية عمدتها ووقفت ملتفتة ناظرة عملها من بدايته الى نهايته حيث اجتازت مسافة العالم الوثني العظيم الذي يبتدئ اساسه من برها وينتهي حده عند قيصر

واعلم يا عزيزي انها بعد ما سطعت الانوار في اليونان وبعد ان حاصرت رومية سيسيليا ولما قطن السلام والاتحاد في افريقيا وايطاليا وافرانسا وسوريا وتمت نبوة مجيء المسيح رجعت تلك السائحة العظيمة الى رحلتها ولم تستقر في الموضع الذي بزغت منه . وبمسيرها اقامت ملوكا وجبابرة وابطالاً وشجعاناً وقديسين وشعراء ومصورين . ثم بعد تتمة عملها في اوروبا راياتها سائرة في وسط الاوقيانوس الاتلانتيكي بمثابة ساقية تاركة العالم القديم وداخلة العالم الجديد حيث لم يكن سوى القبائل المتوحشة وبعض الصيادين وهنالك ولدت من ثلاثة ملايين نفس في مدة ستين سنة نحو سبعة عشر مليوناً من البشر ثم امتدت من قرب نهر سان لوران الى المسيسيبي ومن نيويورك الى المكسيك حيث ابتدأت بمراكبها البحرية في سنة ١٨٠٨ ومدت خطوطها الحديدية سنة ١٨٢٠

فهوذا يا عزيزي كل ما قاله العلماء والجيوغرافيون والبحريون منذ ستين سنة حينما كانت اعينهم شاخصة نحو اميركا .

واسمع ايها العزيز خلاصة الخبر: كان قبطان من سويسرا ماراً في ميسوري ذاهباً الى كاليفورنيا . ولاجل بناء طاحون فيها استأذن من حكومة المكسيك وفيما هو يحفر الارض لاجل تاسيس الطاحون لمح بريقات ذهبية منتثرة في تلك الارض وكان ذلك في سنة ١٨٤٨ حين

كان عدد السكان البيض من عشرة الى اثنى عشر الف نفس . اما الآن فعدد النزالة فقط مائتا الف نفس ما عدا الوطنيين .

واعلم ايها الصديق ان السفر يكون سهلاً حينما تمتد الاسلاك الحديدية من نيويورك الى سان فرنسيسكو وخصوصاً حينما يكون عباس باشا قد تمم امتداد الخطوط الحديدية من السويس الى العريش .

أتلاحظ جيدا كيف ان المتمدن المسافر من الهند لم يرجع الى الآن اليها بل هو متكئ قليلا على شواطي ساكرامنتو وسان جواكان .

وانظر ايها الودود ان طبع هذا الكتاب المشتمل على التجوب في بلاد كاليفورنيا ونشره يُعدّ من الامور المهمة والمفيدة

الخاضع لك

اليكسي دوماس

التجوُّب في بلاد كاليفورنيا

الفصل الاول [1]

(في الرحيل)

اذا ضاقَ صدرُكَ من بلادٍ ترَحّل طالبًا ارضًا سواها
عجبتُ لمن يقيمُ بدارِ ذلٍّ وارضُ اللهِ واسعةٌ فضاها
فذاكَ من الرجالِ قليلُ عقلٍ بليدٌ ليسَ يعلمُ ما طحاها
فنفسُكَ فُزّها ان صبتَ ضيماً وخلِّ الدارَ تنعي مَن بناها
فانكَ واجدٌ ارضًا بارضٍ ونفسُكَ لم تجد نفساً سواها
ومن كانت منيتهُ بارضٍ فليس يموتُ في ارضٍ خلاها

كنت قد بلغت السنة الرابعة والعشرين من عمري حينما كانت الاحوال متأخرة في فرانسا والالسنة تلهج بذكر وجود المعادن في بلاد كاليفورنيا وما كنت ترى في الطرقات سوى جماهير من الشبان يتجهزون للسفر بسبب كثرة الراحلين . واما ذوو الثروة العظيمة فلم يهتموا بذلك . وانا المسكين الذي لم املك الا الف فرنك وحياتي فقط

(١) لقد استصوب طابع هذا الكتاب باللغة الافرنسية ان يجعل الكلام بضمير المتكلم لتكون القراءة لذيذة ومفيدة فيما ان الضمير دائمًا يعود الى البطل الذي سافر تلك السياحة المهمة .

التزمت ان اخاطر بما ملكتُ لاني رغبت راحة البال وان لا اكترث باتعاب الجسم ومشقاته وقد شجعني على ذلك تذكري ما قيل :

تغرَّب عن الاوطان في طلب العلا ... وسافر ففي الاسفار خمسُ فوائدِ
تفرُّج همٍّ واكتسابُ معيشةٍ ... وعلمٌ وآدابٌ وصحبةُ ماجدِ
وان قيلَ في الاسفار ذلٌّ ومحنةٌ ... وقطع الفيافي واكتسابُ الشدائدِ
فموتُ الفتى خيرٌ له من حياته ... بدارِ هوانٍ بينَ واشٍ وحاسدِ

ومع ذلك قد كانت لي خبرة جيدة في سفر البحر وصداقة تامة مع بعض النوتية واخصهم بالذكر الخواجه تروبيك الصديق الودود . وكنت قد سافرت مرة الى جزائر المركيز صحبة القبطان ديبتي توارس . وبالاجمال فان اصدقائي كانوا كثيرين وماهرين في سفر البحر

فهممت الى الرحيل باذن الله تعالى وانقطعت عن العمل هنيهةً وشرعت افتكر في الشركة التي عزمت ان اسافر معها . وبما ان افكاري كانت مكدَّرة ومنزعجة جداً انتخبت اردأ الشركات وادناها وهي الملقبة باسم الشركة العامة التي عُقِدَ مركزها في باريس بشارع بيكال نمرة ٢٤

اما قوانين تلك الشركة فكانت هذه : يجب على كل عضو منها ان يدفع الف فرنك لاجتياز الطريق وان يشتغل الجميع سويةً بالاتفاق ثم تقسم الارباح . واذا احتاجَ احدٌ منها ان يشحن معه عفشاً او احمالاً للبيع فيحق للشركة ان تتاجر به وتاخذ ثلث الربح لنفسها

وعلى الشركة ان تجهز لنا حين وصولنا بيوتاً خشبية بذات القيمة التي دفعناها اعني الالف فرنك وتلك الاخصاص نحملها معنا في المركب

وقد اشترك معنا في هذا العمل طبيب وصيدليته وصار من جملة رجالنا ومن ثم وجب على كلٍّ منا ان يجهز على مصروفه الخاص بندقية وحربة

و يأخذ معه كمية وافرة من الرصاص · والغدارات كانت وقتئذ توافق المشتري جدا · فتبضعت مؤنة كافية من هذه الامتعة التي قد اتتني بمنفعة جزيلة كما سنرى في ما يأتي لان خبرتي في الصيد وافية

وقد انذرتنا الشركة بتسلط الرؤساء علينا في كاليفورنيا و بوجوب الخضوع لهم والاحترام اللائق لمقامهم وفي كل ثلاثة اشهر يبدلون بغيرهم من الذين هم تحت رئاستهم ·

وكان هذا الاعلان في باريس واما الملتقى ففي مدينة نانت بمعاده

وفي نانت عقدت الشركة شروطا مع احد الصيارف لمشترى متركب مقدمة راس المال دافعة خمسة بالمائة لكل الوسق الذي التزم الصراف بشحنه من حيث ان المكاسب تكون لنا · وذلك ظهر مناسبا جدًّا لكن بالورق فقط ·

وفي ٢١ ايار سنة ١٨٤٩ توجهت الى نانت ونزلت في نزل البورصة حيث كان يرافقني الخواجه ميراندول والخواجه كوتيه وهما من اصدقائي المتواعدين والمتأهبين للسفر بمعيتنا

وكنت قد انذرتُ بان احد اصحابنا قد سافر الى كاليفورنيا وسبقنا وهو الخواجه تيلييه دي كروسلاييه الذي ساعدني في غربتي كما سنرى فيما بعد ·

فاوهمتنا الصعوبات واحاطت بنا المشقات من مدينة نانت لانه قيل لنا ان الصراف لم يقبل الشروط فوقع انشقاق بسبب تلك الحصومات وغرم كل منا بمبلغ اربعمائة فرنك · فهل تلتزم الشركة ان ترسلنا الى بلاد كاليفورنيا بالستمائة الباقية ؟ او كيف نتخلص من ذلك والامر على عهدتها · ثم ان هذه الحادثة تتعلق بنا ايضاً ولكن الرؤساء لم يستشيرونا

بهذا الخصوص مطلقا .

اخيرا انحسم الخلاف بانهم اركبونا عجلات نقلتنا من نانت الى لافال ومنها الى مايان ثم الى كآن ومنها ادخلونا مركبا واسرعنا الى الهافر حيث تعين الخروج منها في الخامس والعشرين من شهر تموز .

وبعد مرور ثلاثة ايام للعهد ونحن منتظرون النتيجة بفروغ صبر علمنا في السابع والعشرين من الشهر ان الرحيل تاخر الى اليوم الثلاثين من شهر تموز .

فبقي علينا انتظار ثلاثة ايام وجب ان نمضيها بصبر وبخدمة الشركة وقد ذكرتنا خدمتنا هذه بخدمة الفعلة للوطن في شهر شباط سنة ١٨٤٨ ووجدنا ان ضحيتنا كانت معادلة لعذابهم ولم ينفعنا سوى الصبر الذي تدرعنا به لقدوم الفرج وسلمنا امرنا الى تدبير الله متشجعين نوعًا بالمثل الواعظ كل فرد منا بقوله

اصبر قليلا فبعد العسر تيسير ... وكلُّ امرٍ له وقت وتدبيرُ
وللمهيمن في حالاتنا نظرٌ ... وفوق تدبيرنا لله تدبيرُ

ولكن صبرنا ذهب سدى لان اليوم المعين قد مضى ولسوء الحظ لم نستنتج منه سوى اطالة المدة الى الحادي والعشرين من شهر آب .

اما الفقراء بيننا الذين لا يملكون شروى نقير فقصدوا التمرد على الرؤسا لانه لم يكن لهم ما يقتاتون به في مدة الخمسة والعشرين يوما الباقية ليعاد فبذلنا مجهودنا بتعزيتهم وتقاسم الاغنياء معاشهم معهم وهدأنا روع بعضنا بعضًا بحلول الفرج بعد الصبر وعدم اليأس بعد الاطالة منشطين الهمم بما جاء به قول الشاعر

ان الامور اذا اشتدت مسالكها ... فالصبر يفتح منها كل ما ارتجا

لا تيأسن وان طالت مطالبه اذا استعنت بصبر فترى فرجا

ولما دنا يوم الرحيل اكتشفنا اخبارا جديدة وهي ان الشركة فقيرة كما علمنا ولا تستطيع في اثناء سفرنا ان تقدم لنا الا الغذاء الضروري خلافا للمخابرة التي جرت بيننا بشان السكر والقهوة والعرق والشاي وما شاكلها فكان كدرنا من ذلك شديدا وقدمنا اعتراضاتنا الى الرؤساء فلم يجيبونا الا بهز الرؤوس ان ليست في اليد حيلة

فاجتهد اكثرنا في ان يجدوا شيئا في جيوبهم ولكن واسفرنا من ان قعرها كان عميقا وخرجت ايديهم فارغة . ولذا ضرب عن المال صفحا ولم يشتروا لنا الا المؤنة الضرورية فقط .

ثم اقبل يوم الرحيل وكان سفرنا في الباخرة المسماة شاكالو وهي من المراكب التي سمعنا عنها

وفي عشية اليوم الذى ازمعنا على السفر فيه قدم الاقارب والاصدقاء الى الهافر لتادية الادعية الوداعيه وفيهم عدد من الامهات والاخوات البارات التقيات المتعبدات حقيقة ورغما عن وجود القليلي الديانة بين المسافرين اجتهدت اولئك الفاضلات في جمع اليسير من الدراهم الباقية معنا لاحتفال القداس الاخير على نية سفرنا المخطر في الاوقيانوس الاتلانتيكي والباسيفيكي والتوفيق عبورنا وحلول مراحم المولى علينا والسير تحت حمايته

قد عُدَّ هذا القداس من الامور المرضية لله ليفيض علينا من بركاته العلية ما يأوّل لخيرنا ونجاحنا ولا مانع من انه يحسب جنازا لعددمنا . وفيما نحن نصلي بكل خشوع دنا رجل كان قريبًا مني وهمس في اذني هذه الكلمات : ان احتفال جنازنا الحقيقي لا يكون سوى هذا القداس اذا

داهمتنا اخطار البحر الشديدة . فاجبته مشيرًا برأسي الى ان ذلك الفكر قد خطر لي مثله بطريق الصدفة . وكان ذلك الشاب اللطيف يدعى بوتان وهو مؤلف جرنال التجارة

هكذا انتهى القداس والجميع جاثون يصلون بكل ورع وخشوع وحرارة ناشئة من اعماق القلب . وبعد الصلاة ووصولنا الى المنزل رؤي ان تقام وليمة وفرض على كل واحد منا افرنك واحد ونصف وكان عدد المسافرين مائة وخمسين رجلا وخمس عشرة امرأة وبكل جهد وعناء جمعوا مائتين وخمسين افرنكا ولم تتجاوز الحساب . وبما ان المبلغ كان يسيرا لم نستطع ان نجمع الاقارب والاصدقاء بل لبثنا صامتين .

فتقلد امر الوليمة الخواجه ميراندول مع اثنين اخرين وبذل الجميع مجهودهم لتقدمة وليمة فاخرة عقدت في اينبوفيل وكان وقت الجلوس على المائدة الساعة الخامسة مساء واجتهد كل منا ان يواظب على الوقت المعين معتنيًا في اظهار البشاشة حسب الاستطاعة

وقد قلت معتنيًا لان القلوب كانت منقبضة مضطربة ورغماً عن اظهار الضحك جهارا كان البكاء السري يلوح على الوحدة

هذا وان الجميع تمنوا لنا رحلة سعيدة وفي سكرامنتوا وسان جوا كان نجاحًا وتوفيقًا حسنًا . ومدير المركب ذاته لم ينسانا بل قدم لنا على المائدة جانبًا من الخمر الشامبانيا الفاخرة الشهيرة . فاستمدت الوليمة وقتًا ليس بقليل وفي الغد خرج اهل المركب للجولان والتنزه في المدينة واعلام الفرح تخفق اجتهادا مع باقات الزهور الزاهرة اللطيفة في ايديهم وبعد النزهة بلغوا الميناء حيث كان الجمهور مجتمعاً غفيرا للوداع والسلام

ثم طفق كل منا يعدو مفتشًا من دكان الى اخر لمشترى ما كان ينقصه .

واما انا فقد اشتريت على حسابي مؤنه كافية من البارود والرصاص وقد بلغ وزن ما اشتريته من الصنف الاول عشر ليبرات ومن الثاني ما يقارب الاربعين

وعند الساعة الحادية عشرة خرج المركب من الميناء مدفوعاً بريح لطيف من جهة الشمال الغربي وكان بقربنا مركب اميركاني يدعى فابور المركور

ثم ابتعدنا عن الشاطئ مرنمين ترنيمة الفراق والموت والوطن وقد تتطاير وترفرف من الميناء علامة للوداع وكان الذين في المركب يبادلونهم بمثل ذلك .

وقد تبعنا بعض من الاصدقاء والاهل . وفي منتصف المرفأ نزل الربان وصاحب المركب وتبعهما المودعون حيث كان الافتراق الاخير موثراً محزناً اكثر من الاول

فلم يبق بعد ذلك في المركب سوى الساعين بعزم في طلب الثروة بلا مبالاة باخطارها واما النساء فكن يبكين منتحبات وكاد الرجال ان يقتدوا بهن ومن ثم بقيت الالحاظ شاخصة معلقة بالشاطئ . واستمر ذلك الى الساعة الخامسة مساء حين غابت الارض عن اعيننا ونحن عالمون اننا لا نرى اليابسة الا بقرب راس حورن في طرف العالم الثاني الجديد . ومرنا تحت عناية الرحمن ولسان الحكيم يشجعنا بما قال

سافر تجد عوضاً عمن تفارقهُ ... وانصب فان لذيذ العيش في التعبِ
ما في المقام لذي لبٍ وذي ثقة ... معزة فاترك الاوطان واغتربِ
اني رايتُ وقوف الماء يفسده ... فان جرى طاب او لم يجرِ لم يطبِ
والاسد لولا فراق الغاب ما قنصت ... والسهم لولا فراق القوس لم تصبِ

والبدر لولا افول منه ما نظرت اليه في كل حين عين مرتقبِ
والتبر كالترب ملقىً في اماكنه والعودُ في ارضهِ نوعٌ من الحطبِ
فان تغرب هذا عزَّ مطلبه وان اقام فلا يعلو الى رتبِ

الفصل الثاني

(من الهافر الى ڤالباريزو)

توكل على الرحمن تحظى برِفدهِ وكن واثقًا منهُ برفدكَ بالفعلِ
وسلم الى مولاكَ امركَ إنهُ سيكفيكَ اسباب الكريهة في النقلِ

سبق القول بان عدد المسافرين بلغ المائة وخمسين رجلا وخمس عشرة امرأة . اثنتان منهن اقامتا في مخدع القبطان والباقيات اقمن تحت .

اما خدام المركب فهم : القبطان ونائبه والوكيل وثمانية رجال وولدٌ نوتيٌّ .

وقد حفظ سطح المركب للمسافرين ولم يوضع عليه شيء الا ما كان يخصهم وقد احتوى على اربع طبقات من المحلات الصغيرة اخذت منها فرجة وبالجهد وضعت فيها سريرين . وكان شريكي في تلك الاوضة الخواجه ميراندول . واما النساء فكن مفترقات وحدهن حيث بني لهنَّ مكان شبه الحظيرة في مؤخر الجانب الايسر من المركب

وقد انقسم المسافرون الى ثلاث فرق ولكن لم يكن بينهم تكليفات رسمية بل كانوا متساوين لان الدراهم دفعت بتمام المساواة . ثم بما اننا لم نجد مكانا لوضع صناديقنا الحديدية اضطررنا ان نضعها في محلاتنا وكنا نستعملها عوضاً عن كراسي للجلوس ولبس الثياب واما بقية الامتعة فانزلت الى اسفل المركب . اما المحلات التي لم تذكر فوضعت فيها البضائع المختصة بصاحب المركب . وتلك البضاعة لم تكن سوى الخمر الكحول وانواع الخردوات

واول غذاء وضع بعد ما غابت الارض عن [illegible] الخامسة ومع ان تشويش البحر لم يؤثر في احد منا مع ذلك كنا نقلل من الاكل بلا فائدة . وقد عين لنا بدلا من مائدة سطح المركب الاعلى اعني الظهر وهذا كان محصورا جدا وفيه صناديق مملوءة من الحوامض الكبريتية كروح الزاج وما شاكله وفيه البراميل المملوءة ماء للشرب وقد أعدت قبل السفر لاطفاء الغليل في تلك المسافة الطويلة الخطرة وكانت ايضاً الاخشاب التي اخذت لبناء البيوت حين وصولنا و بلوغنا اربنا علاوة على الاثنى عشر كوخاً التي شغلت في الهافر ودفعوا اجرتها مائة وعشرين افرنكا

وكما قلنا كان هذا الغذاء اول غذاء في اثناء سفرنا فوزع الاكل بانتظام واعطى لكل واحد قليل من الشوربا مع قطعة لحم مشوي وربع كاس من الخمر وقطعة من الخبز صغيرة جدا . فظهر لنا من ذلك ان كمية الخبز زهيدة جدا مدة اقامتنا في البحر وهكذا كان فاننا لم نا كل خبزا سوى الاحد والخميس وفي بقية الاسبوع كان يعوض علينا بالبقسماط

اما جلوسنا في ساعة الغذاء فكان على الزي الشرقي حيث كنا نقعد على

الارض فرقا كل فرقة منها مؤلفة من ثمانية رحال وكل واحد منهم يجتهد في ان يقرب الى جهته صحفة التنك الواسعة التي كنا نتناول فوقنا الضروري منها

وفي الليلة الاولى نحو الساعة الثامنة هبّت علينا الريح الجنوبية واستمرت عاصفة كل الليل وفي الغد كان اشتدادها زائدا حتى انها اوشكت ان تدفعنا الى قرب سواحل انكلترا . ثم فيما نحن نحو الشاطي اذا بصياد امر [illegible] لا يبعدنا ثم الفق معنا ان يحمل منا رسائل ومكاتبات [illegible] الانسان المتبعد عن اليابسة تكون سيئة جدا او يجد نفسه [illegible] ليس له رفيق سوى السماء والماء ويتعزى نوعاً اذا امكنه ارسال كتاب الى الذين ابتعد عنهم ليفيدهم عن حالته واقامته . كونه يجد نفسه صغيرا جدا وحقيرا بالنسبة الى اتساع المياه والامواج يعتقد انه ينجو من الاخطار متى ارتبط مع الانسباء والاصدقاء برسالة فيطمأن باله ويهدأ بلباله نوعاً . واما الذين ليس لهم من يحررون له فحسبوا انفسهم في حالة مشؤمة تعيسة .

ثم رجع الصياد حاملا كمية من انحار يركانه ساعي البوسطة

وفي مساء اليوم الثاني تغيرت الرياح بدون ان تبدي لنا انزعاجاً ومن ذلك الوقت طاب سفرنا وكان سيرنا حسنا والبحر رائقا صافيا فحمدنا الباري تعالى لما آلت به العاصفة من الخير متذكرين مراحمه الغزيرة الفائضة على الذين يتكلون عليه بما قاله الشاعر

وما تم الاّ الله في كل حالةٍ فلا تتكل يوماً على غير لطفه
فكم حالة تأتي ويكرهها الفتى وخيرته فيها على رغم انفه

وقد سبق القول بان قبطاننا كان مقتصدا جدا بخصوص الخبز لقلة

الدقيق الذي شحنه فوعدنا بالوقوف على شاطئ مادير لابتياع البطاطا ولكن املنا بذلك ذهب باطلا لان الجو كان رائقا ففضل المسير واغتنام الوقت لنصل الى نهاية طريقنا بلا تأخر . اما المسافرون فطلبوا الاغاثة والنجدة واجتهدت في ان يغيروا مقصده ولكن رجاءهم ذهب عبثا لان القبطان في مركبه كالملك في مملكته يسود بلا معارضة ولا مخالفة . ثم بين لنا ان جلاء الطقس في البحر يفضل على جودة البطاطة وغيرها . وحقيقة لما يسير المركب بهدوء واستقامة يفعم القلب سرورا وحبورا وخصوصاً اذ يكون لون زرقة السماء والبحر رائقا وصافيا .

وحين وصولنا الى عرض سينيكال دلنا رقيبنا على بارجة امبركانية مراقبة في البحر ملاحظة المرحلة فاسرعت نحونا ناشرة علمها و بادلتنا بالطول والعرض ثم بعد ما جرت التحية بين النوتية و رُفعت الرايات تممنا مسيرنا والبارجة واصلت رحيلها

وقد كان ذلك التبادل حسناً جدا لنا لان مقياس الزمان الذي معنا وُجد ممطلاً على اننا لم نستطع ان نعرف اسم تلك البارجة التي اتت لفائدتنا بل شبهناها بالباخرة المسماة كوريزوج عن جهة مدافعها المبرقشة بالاسود

وفيما نحن نقترب من دائرة الانقلاب الصيفية ظهرت علامات خط الاستواء الخصوصية وصار لون الماء مزرقاً مقتما . و رأينا انواعاً مختلفة من الاسماك الطائرة الواثبة خارج الماء . واشتد البحر متزايدا في تلك المنطقة الحارة

حينئذ ابتدأ الصيادون يمسكون من تلك الاسماك الطائرة التي ظهر صيدها بسيطاً وسهلا جدا بمقابلة تعب الصيادين الآن يصطادونه على

شاطئ نهر السين . وكيفية ذلك انهم دلوا في الماء خيوطاً من خيوط القنب مربوطة بقطعة خشب وعلقوا باطرافها تمثالا على هيئة السمكة وجلس الصياد في القارب وجعل يرمي الطعم في الماء ويخرجه بسرعة وكلما عامت الخيوط على وجه الماء كانت تسرع الاسماك نحو التمثال وتبقى معلقة في الصنارة

وقد عددنا هذه العطية الثمينة مثل المن المرسل من الله تعالى . وعندما بلغنا خط الاستواء وقفت في الرواق منفرجاً على الصيد ثم صعدت الى قمة الصاري هرباً من الشمس وخوفاً من تلك الحرارة التي لم اتعود على احتمالها

اخيرا سرنا تحت عناية الله وكان الجو نقياً حسناً وابتدأنا ان نلمح سواحل البرازيل .

﴿ الفصل الثالث ﴾

(من ڤالباريزو الى سان فرنسيسكو)

ان البطاطا التي كنا ابتعناها قد فرغت قبل وصولنا الى ڤالباريزو بخمسة عشر يوماً فأثر بنا ذلك تاثيرا عظيما وقد اجتهدوا في ان يعوضوها لنا بمعجون الدقيق والعرق مع قليل من الدبس . فيتأمل القارئ ما هي ثمانية اقراص من المعجون المذكور وزعت على ثمانية اشخاص مجتمعين

حول الصحفة ليغتذوا بها . هل يمكن ان تقوم لهم مقام الخبز .

اي نعم ان ادارة الانسان معها قدرت لا تقدر ان تجعل البطاطا مغذية كالخبز ولا الافراص كالبطاطا . واما صلاح الخالق وقدرته الغير المحدودة فانهما وحدهما يوجدان عطايا سامية جمة وانعاماً غزيرة توزع على المخلوقات وبدونها نتلاشى كالعدم وتضمحل حياتنا الفانية

شعرٌ

مولى عطاياه سمت فوق العلا وهمت فكم بسمت ثغور بواكي
هوت المدارك عن معارج فهمها وتباعدت عن رتبة الادراك

وقد كنا منتظرين رؤية الارض الموعودين بها اعني فالبار يزو ولم يكن في المركب حديث سوى هذه الكلمات : فالبار يزو فالبار يزو وقد كانت الالسنة تلهج بذكراها فقط . نعم ان حالتنا كانت سيئة جدا بعد ثلاثة اشهر قضيناها بدون راحة . ثم اننا بوصولنا الى فالبار يزو استبشرنا بقصد المسافة اذ لم يبق لنا سوى ربع الطريق . وحينما قربنا من الوصول سمعنا صوتا ينادي قائلا « ها الارض ها الارض » ولكن لم نتاكد الحقيقة الا حينما شاهدناها باعيننا . فكان الفرح سائدا على الجميع عندما فاجأتنا تلك الكلمات المسرة ورجاؤنا برحمة الله لا يوصف وثقتنا وآمالنا بمزته طيبت انفسنا وحققت نوالنا المطلوب

توكل على الرحمن في الامر كله فما خاب حقا من عليه توكلا
وكن واثقاً بالله واصبر لحكمه تفز بالذى ترجوه منه تفضلا

ثم تاهبنا للنزول الى اليابسة ولبسنا في الحال احسن الثياب التي عندنا واعددنا الدراهم الباقية لنصرف منها لقضاء الحاجة . اما الشاطئ فكان قريباً منا لاننا راينا جملة زوارق مسرعة الينا مقبلة من فالبار يزو وقد

وصلت بعد ربع ساعة واحاطت بالمركب من كل جانب . ثم تقدم اصحاب القوارب للافادة عن الاجرة وطلبوا من كل فرد منا افرنكين اجرة النزول الى اليابسة

فواضح ان هذا المبلغ كان عظيما على رجل دخل في شركة من اتباع الكاليفورنيين وسافر الى نانت واقام فيها خمسة عشر يوماً ومنها الى الهافر حيث قضى ستة اسابيع كاملة

فعندما سمعنا الاجرة الباهظة المتقدم ذكرها عزم نصف الركاب على النزول الى البر . وهولاء لم يكن لنصفهم شيء من الدراهم للرجوع ثانية وبعد الجهد دفعنا لهم عن كل شخص نصف افرنك . حينئذ اظهر اصحاب الزوارق كل مودّة ولطف حتى انهم انزلوا الذين لا يملكون شروى نقير مجاناً واما الآخرون فنزلوا بالقيمة المذكورة آنفاً . وبعد المساواة ذاهبنا للنزول في القوارب الساعة الرابعة مساءً

وشرعنا نفتش وقتئذٍ على شيء نلتذ وننبسط به في اثناء الست والثلاثين ساعة التي وجب ان نمضيها في تلك المدينة غير ان البحث المدقق كان مداره على الدراهم التي لم تكن وافرة عندي . لكن خبرتي بتلك البلاد فاقت معرفة الجميع اذ قد عرفت احوالها سابقاً حينما سافرت الى جزائر المركيز ومررت هنالك في طريقي كما قلت فكنت اعرف المدينة . واما ميراندول الذي كان يعرف شيئاً من حوادث حياتي السابقة اتكل عليّ ووعدني بعدم فراقه وتركه البتة

فنزلنا في نزل التجار واذ كان الوقت متاخرا نحو الساعة الخامسة ذهبنا للتفرج على المرسح وهو البناء الفاخر الذي شُيِّد حديثاً من بعد سفرتي الاخيرة وقد بُني في بقعة جميلة من البلدة وفي ناحية بهجة ليس لها نظير

في العالم و يقر به عين ما ء حولها اشجار البرتقال الشامخة مثل شجر السنديان وكلها مكللة باثمارها الجميلة الذهبية اللون

فمررنا في ذلك المكان بدون فكر و بدون شاغل يلهينا عن منظره البديع ونسيم المسآء كان يعطرنا بالرائحة الزكية المنعشة المنبعثة من اشجار البرتقال و بالاجمال قد كان مساؤنا سعيداً وفرحنا عظيما حتى حسبنا تينك الساعتين من ابهج واحلى ساعات حياتنا . واما بقية ارفاقنا فنظرناهم مشتتين يعدون من مانتوب الى فورتوب

ولقد قلت في ذاتي ما معنى هاتين الكلمتين الغريبتين . لانني لم افهم معناهما الحقيقي ولكني عرفت انهما مرسحان مشهوران في تلك البلدة بالاسمين المذكورين .

فهنالك ترى البنات المرسلات من والديهن لاجل الرقص وهن فتيات جميلات ذوات لون زيتوني واعين سوداء كبيرة منشرطة الى مصادغهن ولهنّ شعرٌ اسود مزرّقٌ قليلا وهنّ يرتدين اثواباً حريرية مفككة الازرار الى زنارهنّ ورقصهن بعيد عن ان ترقصه بنات وطننا اذ لا يستحكمن الخلاعة نظيرهن بل يتبعن انغام القيثارة وحين علو اللحن يضربن على الموائد بايديهن

فمضت الليلة الاولى ونحن بانتظار الغد لنتمتع بمسراته . وقد جاءنا اول مسرة تمتعنا بها فيه كانت منظر لعب الخيل ولا يخفى بان الماهر بيننا فيه هو الافرنسي وخصوصاً الباريسي الذي تمرن عليه من نعومة اظفاره

فلنرجع الى موضوع السفر فان القبطان بعدما اعطانا الاجازة من مساء الثلاثا اوصى المسافرين ان يكونوا على اهبة الرحيل يوم الخميس التابع وكانت علامة الالتئام رفع العلم الفرنسوي الى اعلى المركب ونشر العلم

الاحمر فوق مقدم الصاري وحين انتشار هذا العلم لا يبقى للسفر سوى خمس ساعات

فوجب ان لا نفتكر بذلك الا في يوم الخميس واما يوم الاربعاء فكان كله لنا من العشية الى الغد . واما صرف ذلك اليوم بمثابة برهة قليلة او سنين طويلة فكان موقوفاً على توفيق الدهر او معاكسته .

وقد كانت تسليتنا الخصوصية في تلك الفرصة المطاردة على الخيل خارج فالبار يزو . اما الذين لم تكن لهم دراهم يستاجرون بها احصنة فلبثوا في المدينة . واما انا فكنت من الشبان المسرفين الذين لا يهتمون بمستقبلهم بل يصرفون اخر دراهمهم متفكهين بلذة غير ضرورية

وكان اطمئناننا عجيباً بحيث لم نهتم في شيء بعد اجتياز ثلاثة ارباع الطريق وكنا مسرورين منتظرين بثقة الخمسة الاسابيع الباقية للوصول الى سان جواكان وسا كرامنتو

ثم خرجنا الى خارج المدينة حيث راينا جملة فرسان من الاهالي يستعدون للسباق وهم لابسون ثياباً فاخرة وعلى رؤسهم برنيطة مرسومة ذات اطراف مطرزة بالفضة وبيدهم الرمح وعلى فخذهم السيف وفي وسطهم البنادق . وكانت ثيابهم مؤلفة من سترة لطيفة ومن تحتها صدرة مدوّرة ثم البنطلون المبكل والمجركش من فوق الركبة الى الجزمة وعليه آخر من الحرير الفاخر الثمين وكلهُ بترتيب ونظام وظرافة تدهش الناظر وتحير العقول . وكانوا يركضون على تلك الجياد المرتفعة وهم جالسون كانهم على كراسيهم على ذلك السرج المطرّز بالالوان اللامعة اللطيفة

وقد مضى كل ذلك ونحن ننتظر اواخره بفروغ صبر . وكانت ساعات

الصبح رائقة بهجة ولذيذة وفي منتصف النهار اشتدّ الحر واما المساء فكان كئيباً مظلماً .

وقد كانت النسآء المسافرات معنا مرافقات لنا اينما توجهنا وكنّ نشيطات متقدمات عن الرجال غير مباليات بالتعب والضنك نظيرهم . وعزيزنا بوتان كان مسروراً وفرحاً ومتهللاً .

ثم رجعنا للمبيت والعشآء حيث التقينا ببقية ارفاقنا واصدقائنا . وفي الغد يوم الخميس الساعة الثامنة صباحاً اسرعنا نحو الميناء لمشاهدة ما حدث فرأينا العلم الاحمر مرتفعاً منذ ساعتين و بقي لرحيلنا ثلاث ساعات

وكما قلت كان من الواجب ان نصرف هذه الساعات الاخيرة على تلك الارض بالتفرج والمسرة والذي كانت بيده دراهم ذهب وابتاع مؤنة من الخبز المسمى عند اهالي فالباريز و خبز الاثمار لانه يصنع من الاثمار الناشفة و يباع مقطعاً قطعاً رقيقة جداً شبه قوالب الجبن المستديرة

وعند الساعة العاشرة ونصف نزلنا في الزوارق التي اتينا بها و بوصولنا الى المركب رجع كلٌّ منا وحلّ ثانيةً في قفصه . و بعد ساعتين حلت المراسي وكان الطقس وقتئذ رائقاً والبحر هادئاً حتى اننا استطعنا ان نبتعد عن رؤية الارض قبل ان خيّم الظلام

وفي اثنآء مسيرنا التقينا ببارجةٍ افرنسيّةٍ قادمة من بلاد المغرب فوهبناها احد النوتية لخدمة المملكة وهذه العادة قد جرت عند كل قبطان بانه اذا اسآء اليه احدٌ من الخدم فليس له ما يقاصهُ به سوى ان يسلمه حالا الى مركب حربي ليخدم المملكة ايفآء لجريمته . وهذا المذنب قد تمرّد وعصي متخاصما مع نائب القبطان . وكلٌّ من تعذّبَ مع النوتية لا يتخلص منه الا بهذه الوسيلة . اما قبطاننا فكان غضوباً

جداً فجزع خوفاً على ذلك الولد وقتله وخصوصاً لان البحر كان اذ ذاك متلاطماً مزبداً

فقلنا بعضنا لبعض يا لها من نادرة عجيبة وغريبة لانه لم يحدث بيننا مرض ولا داهمتنا مصيبة في كل المسافة التي قطعناها

وقد كنا قطعنا بناما واجتزنا الخط من الجهة الاخرى حيث تبادلنا في طريقنا وكان مسيرنا تحت الحاظ الباري هادئاً رائقاً . فلقينا ذلك منةً عظمى وبركةً الهية لشدة صعوبة تلك النواحي العسرة المسلك

وفيما نحن مجتازون بكل راحة وسكون اذ فاجأنا صراخ مدهش يرن قائلاً — الا رجلاً في البحر فلم نستطع ان نصدق ما طرق اذنينا بغتةً لان ذلك لا يحدث في مركب تجاري بل يصدف وقوع احد في البحر من مركب حربي وينذر احياناً في سفن اخرى حينما يرفع احد النوتية بكرة الزورق وينزلها فتزلُّ قدمه وهو يتسلق الحبال ويسقط وتصعب جداً نجاتهُ بل انه ربما يغرق اذا كان لا يستطيع السباحة . اما المراكب التجارية فليست كذلك بما ان الزوارق توضع على الظهر وخدامها وبحريتها عديدون

وعند سماعنا ذلك الصراخ الهائل المنذر بوقوع الرجل في البحر طفق المسافرون ينظرون بعضهم بعضاً بدهشة ويفحصون بتدقيق ورعشة عن المفقود من بينهم اما انا فوثبت نحو قمعة الصاري ووجهت الحاظي حالا الى جهة مسير المركب فلمحت بوتان في وسط الزَبد العائم المتلاطم المبتعد مسافة مائة وخمسين خطوة حينئذ صرخت مرتعشاً : ان بوتان في البحر

وحينما ناديت هذه العبارة تاكدت همة وبسالة الجميع لان بوتان

كان محبوباً من كل اهل المركب

ثم اننا بعد الفحص علمنا كيفية وقوعه وهي انه بينما كان يغسل ثيابه ومن هنا يفهم اننا كنا نغسل حوائجنا بايدينا و ينشفها على حبل الصاري زلّت رجله فوقع في البحر من دون ان يشاهده احدٌ . لكنه ظلب النجدة عند هبوطه فسمعه الرجل الذي يدير الدفة ونظر الى الورآء فراى رجلا عائما على وجه الماء عند مسير المركب ومن دون ان يعرفه صرخ ذلك الصوت الذي صدع قلوب الجميع بقوله : ان رجلا في البحر

اما انا فلم اشك بما عاينت ان الغريق هو بوتان حقيقة

ومن ثمَّ اسرع القبطان والمسافرون بحل قارب ورموه في البحر من على ظهر المركب ونزل وكيل القبطان مع احد النوتية وتوقف المركب عن المسير

وكنا نؤمل نجاته لان البحر لم يكن مزبدا بل كان رائقاً صافياً و بوتان يحسن السباحة جيداً وكذا لما راى القارب اشار بذراعيه ان التعب لا يفيد شيئاً ومع ذلك كان يسبح مشدداً قواهُ ليصل اليه وجدّ السائران في طريقهما الى جهة بوتان وهما يقذفان بسرعة وقوة نادرة اما انا فلبثت عند قصعة الصاري حيث كنت اراقب المسافة بين بوتان والزورق وذلك المسكين يشير الينا بعلامات الطمأنينة . ثم اختفى عن العيان مبتعداً عن القارب مسافة تبلغ الخمسين خطوة

فظننت اولا ان الامواج قد غطته وعللنا النظر برؤيته ثانية والرجلان كملا القذف الى تلك الناحية لكن انتظارنا ذهب سدىً لانه لم يظهر احدٌ و بعد برهة نظرت القذافين واقفين شاخصين و رافعين ايديهما فوق اعينهما ثم التفتا الى جهتنا طالبين الرأي الى ما به الخير واخيراً حاولا

التفتيش عليه ثانيةً واحدقا بصرهما نحو ذلك اليمّ الواسع
ثم استكنّ البحر هادئاً ولم نلمح فيه احداً

وبعد ذلك ظهر لنا ان كلب البحر المسمى عوس قطع عزيزنا بوتان قطعتين وافترسه

فواحسرتاه على ذلك المسكين السيء الحظ . من منا قدر ان يتصور تلك الميتة الهائلة ولا يتأثر ويذوب فؤاده عليه . او من كان يعلم ان ذلك المنكود البخت يذهب فريسةً للحيتان ولا يمنعه عن المخاطرة بنفسه لكن الانسان لا يعلم ما قسم له الدهر من التقادير الحسنة او السيئة ولا يعرف التدابير التي يمكنه ان يعيش بها بل يخضع لحكم المدبر الرازق متذكراً ما قيل

في الناسِ من تسعدُهُ الاقدارُ وفعلُهُ جميعُهُ ادبارُ
والعيشُ بالرزقِ وبالتقديرِ وليسَ بالرأيِ ولا التدبيرِ
وليس في العالمِ ظلمٌ جارٍ اذ كانَ ما يجري بامرِ الباري

ولو عرف عزيزنا بوتان او انذر بما جرى لهُ لاستغنى عن السفرة من اولها لكن التقادير تقود الانسان الى آخر نصيبه ان كان من السعد او من النحس

وقد كان ذلك المسكين يحسن السباحة جيداً ولم يخطر على بالنا اختفاؤهُ بغتةً ولو كان لا يعرف فن السباحة لكنا رأيناهُ منقلباً دفعتين او ثلاثة قبل تلك الغطسة الاخيرة الهائلة

وقد استقام التفتيش المدقق ساعتين بعد انه توارى في ذلك المكان والقبطان لم يستطع ان يبدي رأياً بترجيع القارب والوكيل لم يعتمد على العودة . اخيراً رفعت الاشارة وعاد الزورق وعلامة الحزن والكآبة

تلوح على وجه الجميع

بالحقيقة ان تلك المصيبة كانت مصيبة مفجعة اثرت في اعماق الافئدة لان صديقنا التعيس كان محبوباً وكان يساوي المتخاصمين في الخصومات التي جرت في تلك المدة وهذه الحادثة المشومة افقدتنا اياهُ . حينئذٍ حفظت حوائج الغريق واوراقه عند القبطان وبقي الحزن سائداً على كل الذين في المركب

ولله درُّ ذلك الحكيم الدائم الذكر والعارف حقيقة غش هذه الدنيا الفانية وقد نصح من تعلق بأباطيلها ونبهه من الغفلة التي لا تدرك آخرتها بكثرة ملاهي هذا الدهر وخزعبلاته مبيناً محبته اذ اوضح له غاية هذه الحياة ومحتوياتها ونهاه عن التمسك بها فقال وما اصدق ما قال :

ألا كلُّ مولود فللموت يولدُ ... واستُ ارى حيّاً بشيٍ يخلد

تجرّد من الدنيا فانك انما ... سقطتَ الى الدنيا وانت مجرّدُ

وافضل شيءٍ نلت منها فانها ... متاعٌ قليل يضمحلُّ ويبعدُ

فكم من عزيز اعتب الدهر عزه ... فاصبح مرجوماً وقد كان يحسدُ

فلا تحمد الدنيا ولكن ذمها ... وما بالُ شيءٍ ذمهُ الله يحمدُ

نعم ان الدنيا لا تحمد لان كنوزها زائلة وزخائرها فانية فقد بيعت بالمزاد حوائج ذلك الفقيد المسكين المحبوب وارسلت اوراقه الى عائلته . ومن ذلك المساء الى الاحد التالي لم يسمع غناء ولم يجرِ احتفال الرقص كجاري العادة بل كان الحزن والكدر والسكوت والذهول مستولياً على الجميع

ثم رجعنا رويداً رويداً الى معيشتنا الاعتيادية ونسينا قليلا ما كان ولكنا كنا نكرر في احاديثنا الكلمات التالية وهي :

— بونان المسكين

الفصل الرابع

(سان فرنسيسكو)

في اليوم الخامس من شهر كانون الثاني سنة ١٨٥٠ كان الافق ملبدا بالغيوم والضباب وفي النهار سمعنا نوتيًا مشتغلا بلف قلع ينادي قائلا : قد وصلنا الى البر

ومع ذلك مضى اليوم السادس من الشهر ولم نستطع معرفة هيئة الثغر الذي اجتزناه على غير علم منا ولم نقدر ان نميز المدخل الا في اليوم السابع اعني الغد

ففي اليوم السابع لمعنا هيئة البلد رغما عن تكاثف الغيوم . وقد بدت لدينا عن بعد كالمرسح المدرّج المتسع فعلى الرصيف الاول لم نرَ سوى الثيران والايائل ترعى في وسط تلك المروج الخضراء الزمردية ونظرنا الارض هنالك مكسوّة بالعشب لا اشجار فيها .

والرصيف الثاني كان مغروساً فيه عدد ليس بقليل من اشجار الصنوبر العظيمة الشامخة والمتكاثفة وعن بعد يسير من تلك الناحية راينا اشجار البندق والغار نامية بخصب عجيب وكثرة غريبة

واما الثالث فكانت رؤوس جباله عالية جدا حتى يخال للناظر انها ماسة الافق

وكنا في اليوم السادس ونحن نتقدم الى مدخل الخليج نلمح الاشجار نادرة جدا اذ لم ننظر سوى الصخور التي كانت تتخلل العشب الاخضر بمثابة العظام المشكوكة

وحينما كنا بعد بعيدين عن الشط نظرنا عددا من المراكب النائمة نظيرنا تفتش على المدخل اما نحن فكان خوفنا واضطرابنا شديدين وجزعنا من ان نبلغ الشاطئ في الظلمة فكنا نبتهل الى الله طالبين منه الراحة والهدوء في تلك الليلة وحسب اتكالنا على مراحمه بلغنا مطلوبنا وكان الجميع على غاية من السرور والانشراح والدهشة والسكينة لمشاهدة تلك الاراضي المجهولة التي لا يعرفها احد منا الا بالسمع ولم تكن كالراضي فالباريزو حتى كنا نشتاق بجودتها ونتأدب الجميع للنزول في البر في الغداي في اليوم السابع من الشهر ومن الآن وجب تشديد العزائم والنشاط والهمة والسعي واجري وراء الشغل لاكتساب الثروة الموعودين بها وتلك المدينة ليست كفالباريزو التي صرفنا فيها بضعة ساعات بالملاهي والتنزهة والخلاعة بل هي بلاد التبر والجد والمثابرة على العمل بلا ملل

وقبل بزوغ فجر اليوم السابع كان الجميع وقوفا على اقدامهم . واما انا فقد استيقظت مرات عديدة في تلك الليلة . فقد كذب من قال انه نام من دون اضطراب لان الدهشة والفرح قد ابعدا النوم عن اعين المسافرين

ولما نشرت الغزالة شعاعها نظرنا الارض مرة ثانية لكنها استمرت بعيدة حتى اننا لم نستطع تمييز المدخل الى اليابسة . فسرنا من الساعة الخامسة صباحا الى الظهر براحة وسهولة واذ ذاك قدرنا ان نكتشف الارض التي وجب العبور فيها . ومنظر ذلك الخليج بديع جدا وفي جهته اليمنى صخرتان عظيمتان بعيدتان عند قاعدتيهما وتتلاصقتان عند راسيهما حتى يخال لمن يراهما انهما قبة عالية

اما شاطئ البحر فدهشنا من بياض رمله الذي يشبه تراب الفضة وعلى بعد قليل منه تنبت الخضرة بقرب قلعة وليامس

والجهة اليسرى لا يوجد عند اسفلها الا جبال وعرة لا يكسوها عشب من اسفلها الى ثلثها علوًّا . ومن هناك فما فوق ترى قطعان البقر والثيران ترعى في مرعى خصب فيها . واما بقية الجهة المذكورة فلم نحول ابصارنا التمعن فيها لانها لا اهمية فيها نذكر سوى سورولينا اي الخليج الصغير الذي كانت بعض المراكب واقفة بقربه فوجهنا نظرنا الى الناحية اليمنى

ثم تقدمنا اكثر فاكثر الى قرب قلعة وليامس . وبعد ما قطعنا تلك الناحية مررنا بجزيرتين اسم الواحدة انجل والاخرى جزيرة الايائل . والى اليمين شاهدنا ايضًا بيوتا مبنية الاجرة في وسط المروج وهذا المكان يدعى البريزيديو

وحول تلك التربة الصغيرة نظرنا الخيول والبغال وهي المرة الاولى التي شاهدنا فيها تلك البهائم في العالم الجديد

وقد نصب السلك التلغرافي اذرعه الطويلة السوداء والبيضاء على جبل مرتفع وهو لا يكف عن الشغل دائمًا مبشرا بقدوم المراكب . ونظرنا بعضًا من المساكن مبنية عند اسفل الشريط التلغرافي وخمسين خيمة الى ناحية منها

ومقابل تلك الجهة يوجد المرفاء الاول وفيه المحجر لتنظيف المسافرين القبلين من بلاد موبئة . وبما اننا لم نقدم من مدينة مشبوهة بوباء فبعد الاستعلام عن صحتنا اذن لنا بالنزول من المركب فاسرع اعضاء الجمعية الى اختيار الارض والمباشرة بنصب الخيم وكانت جدران مآوينا مؤلفة من اغطية اسرتنا واما الاخصاص الخشبية التي كنا وُعدنا بها فرُميت في

زوايا الاهمال ونسجت عليها عناكب النسيان ولم يسمع فيما بعد كلام بشانها

فنزل الجميع من المركب وفي المقدم ميراندول وكوتيه ثم توجهنا لدى الناحية المسماة المحلة الفرنسوية التي تنزل فيها الجمعيات المقبلة من فرنسا القاصدة كاليفورنيا . وحين وصولنا اليها وجدناها على غاية من الاتقان والترتيب

وفي الغد عند الفجر اخذنا مجارف ومعاول حسب ارشاد اهل الخبرة ونزلنا الى الارض . وتهيأ الجميع للعمل على الفور بعد ما ركبنا قاربًا اوصلنا الى كاليفورنيا يخص احد الاعضاء وقد وهبهُ لخير الجمعية ومن ثم كان وصولنا الى اماكن الشغل اعني المناجم في اليوم الثامن من شهر كانون الثاني الساعة الثامنة صباحًا

وقبل رحيلنا وضعنا كل الامتعة في المحلة الفرنسوية وكان معي وقتئذٍ من الدراهم ستة سنتيمات وكنت مديونًا لاحد رفقائي بعشرة افرنكات . هذه كل ثروتي التي كنت امتلكها حين وصولي الى تلك الارض التي لم تكن لي الا الغرور والخداع والشقاء والعناء ومن ثم ينبغي ان اتكلم عنها قليلًا جيوغرافيًا وتاريخيًا قبل ان احدث عما يتعلق بالشغل من الاخبار فاقول :

ان بلاد كاليفورنيا تقسم الى مقاطعتين وهما كاليفورنيا القديمة وكاليفورنيا الجديدة

اما القديمة فهي التي لم تزل معروفة ببلاد المكسيك الى يومنا هذا وحدودها من الشرق البحر الذهبي المطابق اسمه لحقيقة منظره لفظًا ومعنى بسبب تغيرُّ لون مياهه عند بزوغ الشمس وغيابها على نوع عجيب . ومن الغرب والجنوب الاوقيانوس الباسيفيكي . ومن الشمال يربطها بكاليفورنيا

الجديده برزخ عرضه ستة وستون ميلا

وكان اكتشافها عن يد كورتيز بعناية وتعب لا مزيد عليهما الى انه استطاع ان ياخذ عاصمة المكسيك فان الاسبانيين قد اتوا لمحاصرتها في الثالث عشر من شهر آب سنة ١٥٢١ واما القبطان كورتيز فقد خاطر بنفسه وذهب و بنى فيها قلعتين حصينتين وفي اول ايار سنة ١٥٣٥ وصل الى الساحل الشرقي من شبه الجزيرة · وفي اليوم الثالث ارسى في الخليج المسمى البياز الذي يبلغ قياسه نحو اربع وعشرين درجة من العرض الشرقي ومائة وعشرين من الطول الغربي · وتمت حينئذٍ باسم شارلكان ملك اسبانيا وامبراطور المانيا

ويحسن بنا ان نذكر كيف دعيت كاليفورنيا منذ العهد الذي اكتشفت فيه · وقد وجدنا ذلك في تأليف برنال دياز ديل كاستيو رفيق فرنان كورتيز ومحرر تاريخه · واليك ما وجدناه منقولا بالحرف « ان هذا الاسم قد اتى من كاليد افوراكس حسب قول البعض كما زعم بذلك الاب فينيكاس القائل ان هذه الكلمة هي باللغة الهندية وافتتحوا البلاد الاولون لم يعرفوا ان يفسروها لنا او اهملوا ذلك

اما عاصمتها القديمة فكانت لوريتو التي لا يبلغ عدد سكانها الان اكثر من ثلاثمائة نفس واما عاصمتها الحالية فهي لرآن دي سان انطونيو وعدد اهلها ثلاثمائة نفس · وهذه الشبه الجزيرة التي لا يكاد طولها يبلغ مئة ميل بها من السكان نحو ستة آلاف نفس

واما كاليفورنيا الجديدة المدعوة من الانكليز والاميركان كاليفورنيا العليا فهي واقعة بين الدرجة ٣٢ والدرجة ٤٢ من العرض الشمالي و بين الدرجة ١١٠ والدرجة ١٢٧ من الطول الغربي · ومساحتها من الشمال

الى الجنوب اربعاية وخمسون ميلاً ومن الشرق الى الغرب تسعماية ميل وكليفورنيا الجديدة قد اكتشفها الاسبانيول كالقديمة او بالحري رجلٌ من بورتوغل بخدمة الاسبانيول . وهذا الرجل المسمى رودريكس كابريو سافر في السابع والعشرين من شهر كانون الثاني سنة ١٥٤٢ ليمتحن ويرى الطريق المشهورة التي ظنّ انها اكتشفت من كامبار كورتيسيال في اواسط اميركا الشمالية قبله باربعين سنة . وذلك المكان انما هو البوغاز المسمى الان بوغاز هدسون الذي يصب في الخليج الملقب باسمه وهو حقيقةً بحرٌ داخليٌ

ووصل رودريكس كابريو في اليوم العاشر من شهر اذار سنة ١٥٤٣ الى راس ماندوسان العظيم الذي دعاه باسم ماندوزا اكراما لنائب ملك المكسيك المسمى بهذا الاسم . وبانزواله ثانيةً نحو ٣٧ درجة اكتشف الخليج الكبير الذي دعاه باهيا دي بينوس اي خليج الصنوبر وهو يدعى الان على الغالب باسم مونتري

وفي سنة ١٥٧٩ ذهب الانكليزي فرنسيس دراك المتفنن بعلم سفر البحر وافتتح ساحل كليفورنيا الواقع بين خليج سان فرنسيسكو وراس روديكا وذلك بعد ما حطم في طريقه عدة مراكب اسبانيولية بقرب البحر الجنوبي . وتولىّ على القاطعة المسماة اليصابات باسم ملكة انكلترا ودعا تلك المملكة البرون الجديدة

ثم لم يمضِ على ذلك ما يزيد عن عشرين سنة الا وعلم فيليبُس الثالث باخبار تلك البلاد العجيبة . فامر نائب ملك المكسيك المسمى مونتري ان يبني له مركبا هناك . فلبىّ امره على الفور في ذلك الزمان الذي كان الغزو فيه سائداً ووكل احد البحرية المدعو سيباستيان فيسكينو

الجسور الماهر وسلمهُ تلك الادارة

وفي الخامس من اذار سنة ١٦٠٢ سافر فيلبُّس ووصل الى راس ماندوزان ثم نزل ثانيةً الى راس الصنوبر او البنس وعبر في ذلك الخليج المشهور الذي اكتشفه كابريو وسمى راس اليابسة مونتري على اسم نائب ملك المكسيك كما فعل كابريو في راس ماندوزا

هذا وان المسيو فري في تأليفه الشهير المختص بكاليفورنيا حرَّر الاسطر التابعة المستنتجة من حساب الغزو الذي قدمه للجنرال فيسكينو ومع ان هذه الرواية الحقيقية لها ما يزيد عن المايتين والخمسين سنة يمكننا تصديق قولها . واليك هي :

« ان تربة تلك البلاد جيدة للغاية كما قال الاميرال الذي كان مع فيليبس الثالث وسطح الارض مغطىً بالعشب وذلك يدل على حسن خصبها وهي ذات شعب كثير . واخلاق اولئك البشر الطبيعية خضوعة حتى ان اعتناقهم للديانة المسيحية يعدُّ سهلاً جدًا ويمكننا ايضاً ان نجعلهم رعيةً للمملكة الاسبانيولية »

« وسباستيان السالف الذكر قد سأل جملةً من الهنود وغيرهم من التي بهم عند ساحل البحر ليعلموهُ حقيقةً عما يوجد بعد تلك السواحل فاجابوهُ بما يفيد وجود عدة مدن عظيمة وكمية وافرة من الذهب والفضة وهذا جعله ان يتصور ان الانسان بذهابه الى هناك يكتسب الثروات الوافرة »

فلبثت اسبانيا على غيها وجهلها عند سماعها شهادة تلك الثروة المتعبة التي اكتشفتها وسُرَّت بان ترسل حكاماً ومبشرين فكانوا يصلون براحة كلية على المراكب الحربية

ثم تشتت الجنود رويداً رويداً من العاصمة فرقاً فرقاً لان الانكليز واهالي هولاندا اخذوا منهم جانباً والاخرون اقاموا لانفسهم سلطنة واحكاماً وممالك حرة . هكذا جرى لجمهورية المكسيك حينما ضمّت اليها كاليفورنيا القديمة والجديدة

وفي الحال شرعت السلطة الجمهورية المكسيكية السيئة في ابطال الايالات . واما مدينة التكساس التي أُعلنت لها الحرية منذ عام ١٨٣٦ فنشرت تنبذ الاتحاد مع البلاد المتحدة وذلك في الثاني عشر من شهر نيسان سنة ١٨٤٤

وذلك المنشور لم يحز القبول اولاً عند حكّام الاميركان ومن ثم عُقِدت جلستان عليه وبتّ الكلام على الرضى به في الثاني والعشرين من كانون الاول سنة ١٨٤٥

فحادثة انشقاق المملكة كانت مشومة جداً على المكسيك فقصدت الحكومة المكسيكية ان تنهض مع جيشها وتنتازع املاك التكساس من البلاد المتحدة وجهّزت جيشاً عددهُ اربعة الاف بطل عدا عن الرئيسين تايلور وسكوت واستعدت الجنود لتخليص الحقوق التي لهم

واجتمع ايضاً من الآخرين نحو ثمانية الآف رجل . وفي اليوم السابع من شهر ايار سنة ١٨٤٦ تلاقى الجيشان في سهل بالوالتو وجرى القتال وانهزم المكسيك قاطعاً الريو برافو ملتجئاً الى مدينة ماتاموروس وفي الثامن عشر من الشهر المذكور اخذت المدينة المشار اليها

واذ كان الجنرال تايلور عاقداً حرباً داخلياً ارسل الاميركان بطلا يدعى جون لوات لاجل محاصرة السواحل وقد اخذ معه عدة بوارج . وفي السادس من شهر تموز سنة ١٨٤٦ افتتح الاميركان مدينة مونتري

عاصمة كاليفورنيا الجديدة . ثم في اواخر السنة كان جيش الاميركان الداخلي منتشرا في كل مقاطعات بلاد المكسيك الجديدة وتاموليباس ونيفوليون وكوهاهو يلاواما الجيش البحري فكان مجتازًا في بلاد كاليفورنيه وفي اثناء ذلك كان القائد تايلور محاصرًا المكسيك وبدخوله المقاطعات الواسعة كان بعين افتتاحات الحكومة الاميركية وينذرهم بالانضمام والاتحاد مع الولايات المتحدة

ثم اجتمع ثانيةً الجيشان المتعاديان في نيوفوليون بين الطرف الجنوبي من مقاطعة فيرد وعيون ليون في سهل بينا فيستا وذلك في الثاني والعشرين من شهر شباط سنة ١٨٤٧ . وكان عسكر الاميركان اقوى من الآخر بار بعمائة جندي ونحو الف فارس

وبعد ما استمرت المعركة يومين متواليين تنحى الجيش المكسيكي الى جهة سان لويز دي بوتوزي تاركا النحي جثثًا منطرحة في ميدان الحرب والجرحى كانوا عديدين لكن بما ان العساكر كانت كثيرة حسب ذلك العدد يسيرًا . وقد قتل ايضاً من الاميركان ستمائة رجل فقال بيروس وقتئذٍ : لم يبقَ لهلاكنا وابادتنا سوى انتصار واحد .

وكتب على هذا النسق الجنرال تايلور الى جمعية الدول قائلًا:

« ان دولة واشنطون ارتأت حسناً ان تجمع تسع فرق من العساكر المتطوعين وقد جعلتهم ان يخدموا سنة كاملة في حرب المكسيك ثم منحت هبةً ما يساوي ستة بالمائة من المائة دولار مدخول تلك الاراضي وبهذه السنة ذاتها قد زيد حساب ذلك الجيش الى ان بلغ الثلاثة والاربعين افرنكاً شهرياً »

وعدا ذلك قد جددت الحكومة ورقة اخرى لمغايرة ثمان وعشرين

مليوناً من الدولار لمساعدة على مصاريفات الحرب وكانت عزمت العمارة البحرية الاميركية الاستيلاء على فيراكريز كما استولت على مونتيري لان فيراكريز هي مفتاح بلاد المكسيك .

وجهز الاميركان جيشا بلغ عدده اثني عشر الف رجل وارسلوه في الثاني والعشرين من اذار سنة ١٨٤٩ لمساعدة العمارة البحرية المسمى رئيسها البطل فري ثم وُضع الحصار بقرب بيراكريز وشرعوا في الحال بضرب القنابل ولبثوا مشتغلين هكذا مدة خمسة ايام حتى سلمت المدينة مع السرايا المسماة سان جان ديلوا .

وفي السادس عشر من نيسان ترك الجنرال سكوت موضعه وتوجه نحو المكسيكو مع عشرة آلاف جندي . وكان وقتئذٍ عدد الجيش المكسيكي اثني عشر الف من الجابرة عدا قائدهم المسمى سانتا آنّا . واستمروا مدة يومين منتظرين في مضيق سيروكاردو . ثم قسم الطريق بخندق في منتصفه الى شطرين وشرعت المدافع تدوي مرعدة من ورائه حتى صار الجبل متراساً واسعاً من اعلا الى اسفل . ولم يتاخر الاميركان عن الهجوم بل وثبوا على عدوهم كما قال المكسيك وقبضوا على الثور من قرنيه فكان العراك هائلا جداً والقتال جسيما بحيث لم يرَ في ذلك الميدان سوى الفرسان والاحصنة والمشاة متدحرجة في الوهاد حتى ان الذين لم يقتلوا من ضرب القنابل ماتوا مداسين بالارجل واستمرّت الحال على هذا المنوال اربع ساعات الى ان ضاق المكان فانهزم المكسيك فارّاً تاركا بين ايدي الاعداء ستة الآف من الاسرى وثلاثين قطعة من المدافع . وضربت جالايا في اليوم العشرين وبعد ثمانية ايام اخذت السرايا الحصينة التابعة لبيرون

ثم عاد الجنرال سكوت فمشى مع جيشه الى بيبلاً واملأها من عساكره . وهذه المدينة لا تبعد عن مكسيكو اكثر من اربعة وثمانين ميلا . فدخل اليها مع ستة الآف رجل وفيها من السكان وقتئذٍ نحو ستين الف نفس . ثم حاصر محلات كونتربا وشارابيكو في التاسع عشر والعشرين من الشهر المذكور

وافتتح الجنرال سكوت كايلتبيك ومولان دي روا في الثالث عشر من شهر ايلول . وحينما رأى الاميركان انفسهم منتصرين في كل الوقائع تهللوا وجعلوا ان يكون مدخلهم الاول الى البلاد من عاصمة المكسيك وذلك في السادس عشر من ايلول سنة ١٨٤٧

وبعد مرور ثلاثة اشهر متداولة عاد فانتشر الصلح بين بلاد المكسيك والبلاد المتحدة في اليوم الثاني من شباط سنة ١٨٤٨ . وسبب ذلك دفع المكسيك وكاليفورنيا الجديدة للبلاد المتحدة خمسة عشر مليونا من الدولار (اي ثمانية وسبعون مليونا من الافرنكات) وعدا ذلك قد اعترفت البلاد المتحدة بطلب خمسة ملايين من الدولار (وقدمت ذلك الاعتراض الى المكسيك اعني الرعية الاميركية)

فبلغ مجموع ما التزم بدفعه الاميركان مائة وستة ملايين من الافرنكات عدا مصاريف الحرب وقد كان القبول في اليوم الثالث من شهر ايار سنة ١٨٤٨

وفي الرابع عشر من شهر آب التابع حررت الدولة الاميركية منشورا لشعوب كاليفورنيا مبينة به ارباح حكومة الاتحاد

والآن قد حان الوقت فان انكلترا كانت تتردد الى كاليفورنيا وتسأل المكسيك عن ثمنها . فمن المرجح انها سلمتها اياها منذ ذاك العصر كما سنرى

في ما يأتي وننظر هل قطنها الاميركان ام لا ؟

﴿ الفصل الخامس ﴾

(القبطان سوتير)

قد تكلمنا عن القائدين تايلور وسكوت وكيفية محاصرتهما بلاد المكسيك . والآن نوجه ابصارنا وننقل حديثنا الى ما يختص بجهة كاليفورنيا لنرى ما جرى فيها

في سنة ١٨٤٥ قام الشعب الابيض القاطن في كاليفورنيا وتمرّد على المكسيكيين . وكان عدد العصاة وقتئذٍ نحو عشرة الاف نفس وهم رئيس كاليفورني يدعى بيكتو . وفي ذلك الاضطراب اتحد ثلاثة روساء من الحكومة القديمة . وهم فالليجو وكاستروا والفارادو . ومشى الجنرال ميشيل تورينا حاكم بلاد المكسيك لمقابلة المتمردين فالتقى بكاسترو وابتدأ القتال بينهما الى ان ضُربَ الجنرال ميشيل تورينا في الحادي والعشرين من شهر شباط سنة ١٨٤٥

وحينئذٍ دُعيَ بيكتو الحاكم في كاليفورنيا واستلم جوزه كاسترو قيادة الجيوش . واما ميشيل تورينا فلما علم انه لا يستطيع مقاومة تلك الفتنة ركب حالا احدى السفن الاميركية وذهب فارًّا نحو سان بلاس مع اولئك القواد والجنود الذين قبلوا ان يرافقوه

وفي الوقت عينه صدر امرٌ من الدولة ان يذهب البطل جون الى محاصرة مونتري . ولما تحقق المتمردون ان البلاد صارت تحت سلطتهم

بعد طرد المكسيكيين منها عزموا ان يدافعوها و يحرموا الاميركان من الاستيلاء عليها

وقد كان في ذلك العصر ضابط اميركي ورئيس فرقة من الجنود ببلاد المكسيك الجديدة المسمى استفانو كيارني وجه نظره الى جهة كاليفورنيا الجديدة . وكان مهتماً جداً بشان تلك المصلحة التي سلمته الدولة اياها . واخذ رخصة لاجتياز شواطي كولورادو والمسير مع عسكره في وسط الصحارى المهجورة ليعضد العمارة البحرية الاميركية و يدافع عن الوطنيين ولكن اتضح ان هذه المهمة كانت صعبة لديه . وكان ذلك من الامور التي تظهر معربسة للذين يستلمونها . وحقيقة لم يكن ممكنا لديه بسحب فرقته المستلم زمامها و يزحف الى تلك الصحارى المقفرة حيث لا يوجد سوى الهنود واثار بعض الصيادين

اخيرا رحل الاميرآلاي كيارني مع مائة رجل من عسكره الى كاليفورنيا وترك بقية فرقته على سواحل ريو كراندو يل نورث

وكان في ذلك الزمان رجل يدعى فريمون من قرب بحيرة البيراميد في شمالي الفيتيه الجديدة وهو من نسل المهندسين البارعين الذين يعرفون جيدا وصف احوال الاماكن والوقائع . وكانت وظيفته قبطانا وجنرالا . فهذا البطل شاء ايضاً ان يذهب الى كاليفورنيا واتفق رأيه في زمن الهيجان فرتب لنفسه جيشاً صغيراً من الاميركان الوطنيين وعاند الوالي الجديد المسمى بيكو ورفض اوامره

وهكذا عزمت اميركا على الهجوم والدخول الى كاليفورنيا من الجهات الثلاث دفعة واحدة . اولا من البطل جون المحاصر مونتري . ثانيا من القبطان فريمون الذي نزل من سهل الثلاثة تلال وثالثا من الاميرآلاي

كبارني والمائة رجل الذين معه النازلين من الجبال الصخرية

ثم عادت فانشقت فرقة اخرى جزئية من وسط الثورة العمومية . وتلقب اولئك العصاة باسم بيارس اي الذئاب . وعلَمهم باسم بيارفلاك (اي راية الذئب) .

وسارت الذئاب نحو سونوما وهي مدينة صغيرة موقعها على الطرف الشمالي من خليج سان فرنسيسكو وشرعت في محاصرة القلعة . واما كاسترو احد رؤساء المتمردين الاولين فزحف لجهة سونوما وهو لا يعلم بان القبطان فريمون قد ترك حزبه والتلال موضع اقامته وتوجه ليثير الهيجان نظيره

فالتقي العسكر الكاليفورني بالاميركان عند اسفل القلعة وكان عدد جنود الاميركان وقتئذٍ تسعين رجلاً واما الكاليفورنيون فسبعون رجلاً

ثم هجم القبطان فريمون على طليعة عسكر الاعداء وشتت شملهم ورجع نحو القلعة واستلمها مع كل الادوات التي فيها . ووصل الاميركان الى خليج سان فرنسيسكو حيث اسعفوا المدينة التي لم يسكنها على الاغلب سوى الاميركان

وفي شهر تشرين الاول من سنة ١٨٤٦ علم القبطان فريمون بان ستوكتون قد ارسى مركبه بقرب سان فرنسيسكو فذهب حالا لملاقاته مع مائة وثمانين من جنوده تاركا البقية للمحافظة في قلعة سونوما . وانزل جيشه القليل العدد الى المركب وسار الى مونتري حيث وصل اليها في الغد وباشر في جمع عسكر جديد حتى بلغ عدد جميع الذين معه اربعماية رجل

في اثناء ذلك كان القنصل الاميركي المسيو اولاركان متوجهاً من مونتري الى سان فرنسيسكو واذا بجماعة كاليفورنية من المحاربين في

تلك البلاد قد هجموا عليه وسلبوا ما كان معه فعلم القبطان فريمون بهذه الحادثة ولحق القوم وتأثر خطواتهم ثم مسكهم وابادهم بطلق بارود سريع وخلّص المسيو اولاركان

وفي غضون ذلك الوقت عينه اجتاز الكولونيل كيارني مع المائة رجل الجبال الصخرية وقطع سهول الهنود المرملة المسماة نافاجواس ثم عبر الكولورادو ووصل الى اكواه ليانته حيث مرّ بين بلاد الهنود يوهافس والهنود يوماس وقد تكبد من المشقات والاتعاب ما يعجز اللسان عن تبيانه

ولما وصل هنالك التقى بقائد جيش قليل العدد من الاميركان يدعى القبطان جيليسبي فهذا اعلمه بوجهٍ جلي كلما جرى في كاليفورنيا متشكيًا لديه من قلة عدد جنوده . ثم عدّ الكولونيل كيارني رجاله فبلغ عددهم مائة وثمانين وكانوا اصحاب جسارة وبأس . فامرهم حالاً ان يسيروا لمقابلة العدو

وكان التقاء الكاليفورنيين بالاميركان عند سهل سان باسكال في اليوم السادس من كانون الاول . وصارت الواقعة مهولة مقلوبة حيث ابيد الجيش الاميركي

واما الكولونيل كيارني الذي دعي من ذلك القتال جنرالاً فقد اصيب جسده بجرحين وخسر من تبعته قبطانين وقائدين ووكيلاً مع اثني عشر جنديًا ومع ذلك سمي منتصرًا . والكاليفورنيون هلك منهم ما يقارب الثلاثمائة رجل

وفي الغد جاءت فرقة عساكر بحرية مرسلة من ستوكتون واجتمعت بالجنرال كيارني لانها بُعِثَت لملاقاته حيث تشددت به وسارت الى الشمال

وعقدت واقعتين جديدتين في الثامن والتاسع من شهر كانون الاول

وفي ذلك الوقت عينه اتى كاستروهاربا ملتمساً الدخول في جيش فريمون مظهرا كل الخضوع · وكان قد بقي بعض من الجيوش الكاليفورنية حول لوسانجيليس

وفي اول يوم من سنة ١٨٤٧ بعد ما عقد القبطان فريمون اتصاليته مع الجنرال كيارني جمعا جيشيهما وسارا نحو لوسانجيليس وضربا المتمردين المقيمين فيها وذلك في الثامن والتاسع من كانون الثاني ثم دخلا المدينة في اليوم الثالث عشر

وكانت كاليفورنيا وقتئذٍ خاضعةً · وارتقى القبطان فريمون لرتبة الكولونيل ودُعي حاكماً حربياً للمملكة ·

وفي اواسط شهر شباط نشر الجنرال كيارني اعلاناً مبيناً به انعتاق الكاليفورنيين من تحالف المكسيك وانهم قد اصبحوا وطنيين في البلاد المتحدة

وحدث بعد قليل من الزمن كما سبق القول امضاء المعاهدة التي بين البلاد المتحدة والمكسيك ومنها ذكر ان المكسيك قد سلمت الى البلاد المتحدة القاء الخمسة عشر مليون دولار كل المكسيك الجديدة وكاليفورنيا الجديدة

ووُجد وقتئذٍ في كاليفورنيا قبطانٌ وكان اصله من السويس وقد صار قبطاناً للحرس الملكي من قبل ثورة سنة ١٨٣٠ وسافر بعدها متوجها الى اميركا وليجلب منها اموالاً · وبعد ما استقام عدة سنوات في الميسوري ترك المقاطعة سنة ١٨٣٦ وذهب توًا الى اوريكون وهي مدينة يفتخر بها منذ ذلك الحين لكثرة المصالح فيها وقد توجه اليها كثيرون من السواح سنة ١٨٣٢

والحاصل ان هذا الرجل المسمى سوتير اجتاز الجبال الصخرية والسهول ووصل الى فانكوثير وسار منها الى جزائر الصندويج واستوطن في كاليفورنيا سنة ١٨٣٩ . واذ ذاك وهبه حاكم الولاية قطعة ارض مجانا تبلغ مساحتها ثلاثين فرسخًا مربعًا وموقعها على شواطئ ساكرامنتو وقلده ايضًا سلطة مطلقة في القضاء وتدبير الحكم وادارة الاعمال الوطنية والبحرية

فانتخب المسيو سوتير لاجل بناء بيت يسكن فيه اكمة تبعد ميلين عن ساكرامنتو . وتذاكر مع احد رؤساء القوم ليرسل له بنائين للمباشرة في العمل واتفق معهم على ان تكون الاجرة اقمشة وخرداوات . وهولاء هم الهنود الذين حفروا خنادق قلعة سوتير وصنعوا الطوب ورفعوا الجدران

وحينما تم بناء القلعة قصد ان يضع جنودا للمحافظة عليها فانتخب خمسين هنديا من ابناء البلاد الذين لبسوا وتمثلوا وتثقفوا وحرسوا القلعة بامانة وسهر حتى فاقوا الجيوش الاوروبية همةً ونشاطا

وتلك القلعة سببت بناء بلدة صغيرة دعيت سوتير فيل على اسم مؤسسها وحينما شيدت حديثًا كان فيها اثنا عشر بيتا سنة ١٨٤٨ . وكانت سوتيرفيل تبعد عن القلعة مسافة ميلين .

قد قيل ايضًا ان المسيو سوتير نقل الى كاليفورنيا كل انواع اشجار الفواكه الموجودة عندنا في اوروبا وخصص ارضًا واسعة لزراعتها وخصوصًا الكرمة التي نمت بها وانتجت اثمارا فاخرة لذيذة . ولم تكن ثروة المسيو سوتير بعد متصلة بمعرفة التبر بل كانت ارباحه من تربية المواشي وحصاد الحبوب . وقد حصد المسيو سوتير سنة ١٨٤٨ اربعين الف كيلة من الحنطة ومن ذلك الوقت بدأت ان تنفجر امامه ثروة جزيلة جديدة فاقت الثروات الاولية لذة

وتلك الثروة هي اكتشاف المعادن . ففي بوتوزي اكتشفها هنديٌّ من خدام المسيو سوتير وهو يتبع ثورا فاراً من بين قطيع سيده . وجرى ذلك ايضاً في ساكرامنتو بصدفة نادرة غريبة وذلك ان المسيو سوتير قد احتاج خشباً لاجل بنايات ثم اخبر انه يوجد شجرة صنوبر تبعد ميلين من وادي ساكرامنتو وتلك الشجرة كانت تنمو بسرعة غريبة فاعجبه ذلك وقال انها تصلح للالواح الخشبية التي يريدها . ثم تشاور مع رجل صانع ادوات يدعى المسيو مارشال واتمم ان يصنع له من تلك الشجرة دولابا يتحرك مع انحدار الماء فلبى طلبه على غاية ما يكون من الاتقان حسب التفاصيل التي بيّنها له . غير ان اسفل الدولاب لم يسع كل الماء المتدفق من فوقه وكان تصليحه عسرا يكلف مصاريف باهظة وتأخيرا . وبعد الاعتناء التام استطاع صانع تلك الآلة ان يجعل الارض تحفر بالدولاب المتحرك بانحدار الماء فكان يرى في اسفل منحدر الماء ما يرسب من الرمل او غيره . ويوماً ما ذهب المسيو مارشال لزيارة ذلك المكان ليفحص به ويرى هل جرت المياه حسب افكاره . وحينما كان يمعن النظر في عمله لمح بين الرمل المتجمع مادة لامعة فلقطها حالا وعرف قيمتها . وتلك النقيطات اللامعة كانت تبرا خالصاً . فالوقت ذهب المسيو مارشال واعلم القبطان المسيو سوتير عن اكتشافه الجديد واتفق الاثنان على كتم ذلك السر وعدم التفوه بشانه . لكن اين ذلك من الكتمان فان كلمة (التبر) كانت تسمع من اهتزاز القصب وتحرك الاشجار وخرير الماء . اخيرا فشى ذلك السر ورنّ صداه الى اقصى العالم

وتلك الضوضاء المبهجة كانت تنتقل مع المسافرين من سان فرنسيسكو الى مونتري

ثم انتشرت الشهادات الرسمية من اكولونيل مارون والقبطان فولسون وقنصل فرنسا المسيو مورانهوت . ومن ذلك الوقت لم يعد ريب في ذلك ولم يستطع احد اخفاءه . واتضح الامر جليا ظاهرا لدى العيان وتحقق اكتشاف التبر . وشرعت المراكب تتوارد من كل فج ناقلة شعوبًا مختلفة واممًا شتى .

فليتامل القاري ويعلم باي اسلوب كان ينمو عدد الشعوب في كاليفورنيا ففي سنة ١٨٠٢ صنع العلامة هميولدت معدّل عددهم فبلغ ١٣٠٠ نسمة من الرحلاء البيض و١٥٥٢٦ من الهنود التائبين المرتدين الى الايمان .في سنة ١٨٢٤ احصى عددهم ثانيًا مسيودي موفراس فبلغ عدد الاولين ٥٠٠٠ والهنود القاطنين في الداخل ٤٠٠٠٠ نفس

وفي اوائل سنة ١٨٤٨ تكاثر الشعب الابيض الى ان بلغ عدده ١٤٠٠٠ واما الوطنيون فلم يزدادوا شيئًا . في اول كانون الثاني سنة ١٨٤٩ احصي عدد الامة البيضاء فساوى ٢٦٠٠٠ نسمة وفي الحادي عشر من شهر نيسان بلغ ٣٣٠٠٠ وفي اوائل كانون الاول ٥٨٠٠٠

وازداد العدد الاخير بعد بضعة اشهر بمبلغ ٣٠٠٠ اقبلوا من المكسيك من مقاطعة سونورا ثم جاء ايضًا ٢٥٠٠ من جهات مختلفة . ثم قصدها ٣٠٠٠٠ سائح اتوا اليها من نواحي سهول الشمال . اخيرًا بلغ عدد الانفس القاطنة هنالك ما يقارب المائة وعشرين الف نسمة وذلك في زمن وصولنا اي في كانون الثاني سنة ١٨٥٠ وفي سنة ١٨٥٥ يصير عدد سكانها مليون نفس ومدينة سان فرنسيسكو تكون غالبًا اعظم مدن العالم بعدد السكان

الفصل السادس

(صرت شيّالاً)

سبق وذكرنا ان وصولنا كان في اليوم الثامن من شهر شباط الساعة الثامنة صباحاً . ومضينا ذلك النهار بكماله ونحن ننقل التراب وننصب الخيام . فاربعة رجال من ارفاقنا اشتغلوا بجلب الاوتار والبعض بحفر الارض والبقية بنشر الخيام وكنت انا من فرقتهم

واما النساء فسافر منهنّ ثلاث عشرة امرأة توًّا الى سان فرنسيسكو حيث كُنّ مُنتَظِرات ومُنتَظرَات بفروغ صبر لان الحاجة كانت شديدة اليهنّ . ولم يكن وقتئذٍ في سان فرنسيسكو اكثر من عشرين امرأة وهذا العدد القليل لا يكفي لخدمة المائة الف رجل

وأُرسِلَت المراكب من شيلي لتأخذ منهنّ . وتأسفتُ جداً لانني لم القَ حالاً اولئك المسافرات حين وصولهنّ الى سان فرنسيسكو لانني سمعنا انه أُخذ خمسة او ستة من الثلاثة عشرة قبل بلوغهنّ الفندق

وفي يوم وصولي عند الظهر تقريباً التقيت بصديقي تيليه و بعد السلام اخبرني ان وصوله كان قبلنا بخمسة عشر يوماً ووجدته نزلا في المحلة الفرنسوية . و بقطع النظر عن شرح كيفية الملاقاة اكتفي بان اقر بالعجز عن وصف عظم سرورنا . فبقيت عنده ملازماً له الى حين انهاء خيمتي . وكانت وظيفته عميلا على الميناء

وكانت امرأة احد اصدقائنا مرافقة له فكلفناها باستلام ادارة المطبخ وارسلنا رجلا من بيننا لكي يبتاع لنا زاداً بعد ما حرصناه ان ينتبه جيداً

و يلاحظ الاسعار الجارية . فاشترى رسولنا من لحم البقر نعمل الشوربا التي أحرمنا من لذيذ طعمها مدة سفرنا .

ومما اشتراه بقيمة خمسة افرنكات استدللنا ان ثمن الليبره يساوي ثلاثة افرنكات .

فظهر لنا ان الاسعار في تلك البلاد باهظة جدًا وكل شيء يباع باغلى واعلى الاثمان حتى ان ليبرة الخبز كانت تبلغ قيمتها من افرنك وربع الى افرنك ونصف . واخبرونا ان اجرة الاوده التي لا يساوي عرضها اكثر من ثمانية اقدام تبلغ لحد خمسمائة افرنك شهريًا والدفع مقدّم

والبيت الذي فيه ثلاثة او اربعة منازل تبلغ اجرته شهريًا نحو ثلاثة الاف افرنك . ويوجد بيت يدعى الدورادو قد كلف بناؤه خمسة ملايين من الفرنكات فبلغت اجرته في الشهر ستماية وخمسة وعشرين الف افرنك

ويجب تصديق ذلك بلا ريب لان البنّاء يأخذ اجرته يوميًا من اربعين الى ستين افرنكا والنجار من ثمانين الى مائة . و بلغ ثمن قطعة ارض مربعة مساحتها مائة قدم مائة وخمسين الف افرنك . وقد قيل انها اعطيت بصفة هدية من الحكومة تقريبًا مجانًا وكان ذلك في ابتداء سنة ١٨٥٠ قبل وصولنا بنحو ستة او ثمانية اشهر

ورأينا رجلا من وطنيينا يشتري ارضًا بالمزاد ومقياس سطحها لا يزيد عن خمسين قدمًا وقد ابتاعها بستين الف فرنك ثم عقد ايجارها بعد ثلاثة ايام مع احد اصحابه بخمسة وسبعين الف افرنك في كل ثمانية عشر شهرًا بشرط انه اذا شاء اخذها بعد ذلك يسترجع لمالكه البناء الذي يقام فيها

على ان قيمة الاشياء الحقيرة الصغيرة كانت معادلة للكبيرة وما زلت اذكر نادرة من هذا القبيل وهي : ان بائع بيض رأى يوماً ما بائع ابو فروة (كستنا) ينادي باعلى صوته قائلا انه احضر من ليون بضاعته علم انه يكسب نصيباً حسناً بسبب ذلك فابتدأ ذاك يصرخ منادياً (ها البيض الجديد الذي احضرته من ليون) فضحك منه الجمهور قائلا هل يبقى البيض جديداً بعد سفره تلك المسافة ؟

وقد بيعت ليبرة الجبن ايضاً بثلاثة عشر افرنكا . ودفع بعضٌ مائتي افرنك اجرة نوتيين مع قاربيهما لمسافة ست ساعات . والجزمة المسياة عندهم بحرية (وهي الى ما تحت الركبة) تباع في ايام الشتاء بمائتين او مائتين وخمسين افرنك وبمائة او مائة وخمسين في ايام الصيف لانها لا تلبس غالباً الا شتاء في زمن وقوع الامطار

وفي تلك المدينة عددٌ ليس بقليل من الاطباء المتشعبذين منهم اربعة او ثلاثة اكتسبوا الشهرة والاعتبار فقط ولكن اجرة زيارتهم للمريض كانت من ثمانين افرنكا فما فوق

وقد قصّوا لنا عن ثروات تلك البلاد كلاماً لا يصدق . فان رجلا من ابناء وطننا هجر بلاده وسافر الى هنالك قبل وصولنا بسنة من الزمان ولم يكن معه وقتئذٍ اكثر من مئتي افرنك وحين وصولنا قيل لنا ان مدخوله الشهري ينيف عن الخمس وعشرين الف ليرة هذا عدا عن ارباحه التجارية

وبالاجمال ان تلك الثروات الجزيلة كانت تتكاثر على الاغلب من ايجارات المساكن والتقويمات التجارية بذخائر تلك الاراضي

ثم انني حينما كنت هنالك عزمت ان اشتري كانونا وبعد المعالجة وجدت

ان القيمة الاخيرة المطلوبة كانت ثمانمائة افرنكا وحيث انني لم اكن غنياً بهذا المقدار عدلت عن مشتراهُ مقتصداً ذلك الاسراف

وكل هذه الاخبار والنوادر التي تظهر لسامعيها كانها كاذبة لم تكتب الاَّ لتسكب في قلوب المسافرين الى تلك البلاد الامل والرغبة والاندهاش واليأس معاً

اما جمعيتنا فقد تبددت ولم يبقَ منها الاَّ خمسة وعشرون رجلاً وفي يوم وصولنا سافر اربعة من رفاقنا الى اماكن الشغل بمساعدة دراهمهم لان المسافة كانت من عشرة الى اثنتي عشر يوماً ينبغي لنا اجتيازها للبلوغ الى سان جوا كان

فيفهم من ذلك ان الرجل العازم على الرحيل تلزمهُ ثروة كافية ليعيش بها هنالك . والصنائع الرائجة في تلك البلاد ليست سوى اخراج التبر من الارض واذا وجبَ النظر في دراهمنا قبل الرحيل الى المعادن لاننا علمنا انهُ لا احد يستطع الذهاب الى ساكرامنتو او الى سان جوا كان سوى الاغنياء

على اني لم اكن من عدد الاغنياء لاني قلبتُ كيس دراهمي بحضرتهم ولكن لحسن الحظ لقيت محباً مخلصاً عرفَ ان يرشدني و يدبرني في العيشة الكاليفورنية وهو العزيز تيليه الذي وصل قبلنا بخمسة عشر يوماً . فبقينا اربعة ايام في المحلة الفرنسوية مهتمين بترتيب المساكن فقط . وفي اليوم الخامس باشر كلٌ منا يشتغل للجمعية حسب استطاعتهِ انما تلك المهنة لم تطل اكثر من اربعة ايام

واول صنعة كنا نتعاطاها في تلك البلاد كانت شق الحطب في الغابة الواقعة عند شارع الميسيون حيث وجدنا تاجراً اشترى منا كل حزمة

بار بعمائة وسبعين افرنكاً وذلك الخشب نحمله على المركبات بعد ما ننشره ونقطعه ثم نبيعه باثمان جيدة وهو من شجر السنديان ويستعملونه للوقد . وكلّ من اراد ان يشتغل بهذه المهنة لا يمنع لان الحرية مطلقة .

وتلك الغابة المتكاثفة الاشجار لم يبقَ منها الى ايامنا هذه سوى بعض شجيرات لبثت كعلامة لذلك العصر وهي الآن شبه الحدائق للبيوت التي شيدت في شارع الميسيون وتلك الناحية تصير يوماً مامن اجمل ضواحي المدينة

قد سبق القول اننا اشتغلنا للجمعية اربعة ايام فدفع لكل منا مائة فرنك صرفنا منها على قوتنا فقط . وعند ما انحلت الجمعية انفصل كلٌّ الى خيمته مع حوائجه وبادرنا الى طلب الثروة بالسعي والجد حسب مشتهاه وقوانا .

اما انا فسلمت ادارة اشغالي لمعرفة وخبرة تيليه الذي اشار عليّ ان اصير شيالاً نظيره لانني كنت شابا فصرت اعدو بالمحمل والكلاليب منشطاً همتي وعند التعب استند الى زاوية من زوايا البيوت التي على المينا مع ذلك كنت اجد تلك المهنة لذيذة ومفيدة جداً لان الشغل كان متواصلاً دوماً . وكنت احمل مع تيليه الاحمال الخفيفة على الكلاليب والثقيلة على المركبة . فهل من ايام مفرحة طيبة كهذه . ولو قابلنا هذه الحرفة مع من تعاطاها في باريس نرى البون العظيم والفرق الجسيم لان اولئك المساكين لم يزد مدخولهم في آخر النهار عن الخمسة او الستة فرنكات واما نحن في سان فرنسيسكو فكان المكسب اليومي لكل منا من ثمانين الى تسعين افرنكاً . فصدق القائل (ان صاحب الصنعة ليس باحمق) وكأنه قال هذا عن حقيقة سكان كاليفورنيا لانني رأيتُ هنالك من عرفتهم من اطباء ووكلاء دعاوي يتعاطون مهنة الكناسة او يغسلون

الآنية في المطبخ . وحينما ينظر الاصدقاء بعضهم بعضاً هناك يتبادلون اولاً بالتحية والسلام ثم يضحكون مستهزئين بتلك الصنائع التي يشتغلون بها

ومن العجب العجاب انني بمقدار ما كنت مسرفاً في فرنسا صرت مقتصداً موفراً في كاليفورنيا لانني كنت اصرف يومياً من ثلاثين افرنكاً الى اربعين وهذه القيمة كانت زهيدة بالنسبة الى تلك البلاد حتى انهم يدعونها خساسة . انما كان لي قصدٌ بعد ذلك . وهو جمع المبلغ الكافي للسفر . لانني في مدة شهرين قدرت ان اجمع الفي فرنك . واما تيليه فبلغ ما معهُ الف افرنك زيادةً عني لانه وصل قبلي بخمسة عشر يوماً

وفي مدة ذينك الشهرين اغتنمت الفرصة للتفرج على المدينة وشوارعها على اني بينت وشرحت نجاح مدينة سان فرنسيسكو ولم اقل عنها شيئاً حين وصلنا اليها ففي ذلك العصر احصي عدد السكان الذين في المعادن وفي مدينة سان فرنسيسكو فبلغ مائة وعشرين الف نسمة وزاد عدد النساء خمس عشرة امرأة اللواتي سافرن معنا

ثم انهُ كما ان الفضول يتقدم على الضروري في العالم العتيق كذلك كان في العالم الجديد . لان عدة مراسح قد شيدت واشهرها المرسح المعتبر بشارع واشنطون . حيث لم ينقصهم الا الممثلون لتشخيص الروايات ومن حظهم قد وافاهم شخصٌ يدعى مسيودي لامار سافر على الباخرة التي نقلت جاك اراكو القائم في فالباريزو

فحينما وصل مسيودي لامار الى سان فرنسيسكو لقي نفسه وحيداً فريداً وليس من يعارضه بما يشاء فعله . فبادر وعزم امرأتين كانتا وصلتا حديثا احداهما على الباخرة شيفران والثانية على الباخرة شاكالو (وهو المركب الذي سافرنا عليه) واسم الامرأة الواحدة هورتانز والثانية جوليتا

وبعد انهُ دبر فرقةَ اولى استطاع بعد الجد والتفتيش يميناً ويساراً ان يجمع جيشاً صغيراً في مدة شهر تقريباً وبما ان النساء كانت قليلات العدد في المدينة فلم يلعب في ذلك المرسح سوى الرجال المسخرين فقط . انما السبب الذي جعل المراسح تجلب الاموال الجزيلة وتربح المكاسب العديدة هو الالعاب المضحكة والطرب واللذة وما اشبه .

وما كان الانسان يجمع التبر بحفر الارض وبالعناء الشديد الا ويبادر مسرعاً الى تبديد ما جنته يداه ويفتش على واسطة لذلك فيجدها في المراسح وذلك يحق له ان يروض نفسه بتلك المناظر المتقنة البديعة المدهشة العقول المروضة الاجسام . وكان بيت الدورادو المذكور انفاً اغنى واعظم محل بلعب المعادن

وانما قلت المعادن لان الدفع لا يكون ذهباً نقودا او فضة مسكوكة الا نادرا بل اللعب بالمعدن وهو التبر الذي يصنعونه سبائكا ويصنعون الميزان على جانب الطاولة لوزن ما كسبوه . وحينما يخسر المقامر سبائكه يعوض عنها بساعته ومجوهراته . فيخرج المعيبون متجهزين للقتال شاكي السلاح البارودة على اكتافهم والفرود في وسطهم .

واما النساء القاطنات تلك البلدة فيأتين المساء هنالك ويخاطرن بدراهم اشغالهنَّ اليومية مشددات عزائمهن لئلا تقع الخسارة عليهنَّ وكانت المساواة مطلقة في تلك الجمعيات حيث يرى الصيارف والعتالون يلعبون بشركة واحدة . وفي تلك المحلات خزائن كبيرة تروج عليها انواع المشروبات حيث يباع كل كأس صغير من العرق او كل ثمرة كرز او كل خوخة بفرنك وخمسة وعشرين سنتيما

اما جماعة الموسيقى فكان مستقر جلوسهم في الصالون وهم يشتغلون من

من الصباح الى الساعة العاشرة مساءً مشنفين الآذان بالحانهم المطربة وعند نهاية نهارهم اي في الساعة المذكورة يذهبون وتبقى المقامرة والخصام والقتال

اما النساء اللاعبات فكنّ يتزايدن عددا يوماً فيوماً و يظهرن جسارتهنّ باخذ الارباح وهجر الخسارة . وقد سبق القول عن المراكب التي سافرت لنقل النساء . وهوذا ما تلخصنا عن معرفتهن في تلك الرحلة

ان السفن بينما هي سائرة في طريقها كانت تتوقف في نواحي الشط الغربي من اميركا الجنوبية من راس بلانك الى فلدافيا ثم تدعى النساء الجميلات اللواتي يرغبن السفر الى بلاد كاليفورنيا المتشخصات في عقلهن ان البلاد المذكورة تهب ثروة عظيمة (قد يوجد عدد ليس بقليل من النساء الجميلات اللواتي يتكلمن اللغة الاسبانيولية بظرف ولطف) فكنّ يتساومن بالاجرة مع قبطان المركب و بوصولهن الى سان فرنسيسكو كنّ يبعنَ انفسهنّ باثمن الموافق لهنّ . وكان يصدف احيانا ان الامرأة المشتراة اليوم تذهب من عند مشتريها الى من اعطاها دراهما زيادة وبما انه لا يوجد سُنّة لطلاب الحقوق فتتصرف كل واحدة حسب رأيها ويخسر المشتري المبلغ المدفوع

فلنتكلم الآن عن الصنائع التي اهمها مهنة الخباز . فالخبازون كانوا على الاغلب من الاميركان والفرنسويين وهم يحسنون صنعتهم جيداً وكانت تباع الليبرة من الخبز بفرنك وخمسة وعشرين سنتيما واظن ان هذا السعر لم يزل باقياً على حاله الى هذا اليوم

ثم العطارون وكلهم اميركان لا يعرفون غير اللغة الانكليزية والمسافرون القادمون من بلاد غربية كانوا يعانون مشقة عظيمة بالمعاطاة معهم فكنت

ترى المشتري متقدما الى دكان العطار الذي لا يفهم منه ويذهب مفتشاً في البراميل والصناديق والخزائن ليرى ما يطلبه وعند التقائه ياخذه على الطاولة التي يعقد عليها البيع والشراء فيبيعه العطار مرغوبه بالاشارات والعلامات فقط .

والقهاوي هنالك عظيمة مشهورة فيها غناء والحان مطربة والاكثر اعتبارا منها هي المسماة بالثلاثة القاب الآتي ذكرها وهي : قهوة باريس وقهوة العميان وقهوة القفر والانغام هنالك حلوة جدا كقهوة باساج دي فيردو وقهوة الشانز يليزه . واما قهوة الحرية فالالحان فيها تفوق على كل البقية لانها ترافق عزف الموسيقى ولا يدفع الانسان شيئا الا اذا شاء مشترى حلويات او غيرها . لكن الاسعار باهظة جدا كما بيناً عن ثمن الكاس الصغير .

ثم اصحاب الفنادق او على الاغلب الطباخون الصينيون الذين يصنعون الطبخ حسب ما كولات بلادهم ومعرفتهم ولكن يا له من طبخ مقرف تنفر القابلية عند مقابلته واما اصحاب الفنادق فكلهم فرنسويون و يعرفون من اسماء منازلهم . وها اسماء البعض منهم : اوتيل دي فاييت : اوتيل لافيت : اوتيل العالمين . وقد ذهب الى تلك المدينة بعض من الخياطات الماهرات لكنهن قد كابدن مشقات عديدة لقلة النساء حيث بلغ عددهن حين وصولنا من العشرين الى الخمس وعشرين امرأة وارباحهن يسيرة ثم تزايدن الى ان صار عدد الخياطات في مدة رجوعي من الالفين الى الثلاثة آلاف وكلهن يشتغلن جيدا ومحلاتهن ناجحة مبشرة بالعمران .

ثم سافر بعد قليل الزارعون وجلبوا حبوباً فاشتروا قرىً واراضي حسب موافقتهم ونشطوا الهمة مبتدئين بعزق الارض واحيائها . ولم

يدفعوا اثمان الاراضي سوى من المحصولات التي استغلوها بكدهم وتلك الاماكن مختصة برجل المكسيك او بحاكم الاميركان

ان دُن انطونيو ودُن كاسترو قد اشتغلا بالتجارة فربحا اموالاً عديدة ويعدّان الآن من الاغنياء لان ثروتهما تزيد عن الستة ملايين ليرا . وهما يملكان قطعة الارض الغربية من ثغر سان فرنسيسكو وتلك البقعة مغطاة بالمواشي المتنوعة

ولم يبق علينا من الصنائع الا مهنة اخراج التبر وتلك المهنة الخداعة المكتسبة صيتاً حسناً وقد ميزها عن غيرها وهو الذهب الذى تغربتُ لاجله مع تيليه صديقي لكن مواعيده المشجعة الكاذبة اذاقتنا عذاباً شديداً وجعلتنا ان ندخل في اخطار عديدة

﴿ الفصل السابع ﴾

(في اماكن الشغل)

ولما حصلنا على المبلغ المطلوب وصارت عندى القيمة المذكورة سابقاً قصدت انا وتيليه ان نترك سان فرنسيسكو لنتوجه الى اماكن الشغل . واذ كنا لا نعلم جودة تلك البلاد المعدنية عزمنا على الرحيل الى سان جواكان لقربها الينا اكثر من ساكرامنتو وقد قيل لنا انها غنية جداً بمعدن التبر فصممنا على الذهاب تحت عناية الباري تعالى

غير ان المسافة كانت عسرة جداً . فالمراكب العديدة في كاليفورنيا كانت تشتغل بنقل الراحلين من الساحل الى ستوكتون بقيمة ثلاثين

افرنكا ومنها لا يبقى الى سان جوا كان سوى مسافة يسيرة لا تزيد عن ثلاثين فرسخاً وفي كل الطريق شلالات صغيرة فمن ستوكتون يشتري المسافر بغلا او غيره يستعين به على الوصول الى اماكن الشغل

وقبل السفر اشترينا ادوات الشغل وخيمة للمأوى لان الانسان كلما ابتعد عن البحر وتعمق في البلاد يجد الاسعار متصاعدة ونحن الذين اكتسبنا دراهمنا بعرق الغربة لا يمكننا ان نصرف منها مبلغاً وافراً . اما ادوات الشغل فمؤلفة من مجرفة ومعاول وحراب واناء واحد للغسيل وتكفي لشغل الاثنين معاً . وكان الاناء خشباً وهو يستعمل لغسل التراب وقد يصنع احياناً من التنك وقطره لا يزيد عن الستة عشر اصبعاً وهو مخروطي الشكل عميق قليلا ومصقول جيداً من الداخل

وعلى قدر حجم تلك الآنية تكون الكمية زايدة من ثمانية الى اثنى عشر ليتراً وكيفية الغسيل هكذا ان يملأ الاناء الى ثلثيه تراباً ثم يبتدي الغسال حالا بفركه وغسله جيداً مجتهداً ان يحفظ الاناء تحت الماء ليفرق التبر من التراب والحجارة ويحركه بهزة مرتجة شديدة بها تنفصل الاجزاء الخفيفة عن الذهب . هذه هي وظيفة الغسّال المسكين الذي يقف منتصباً في الماء الى زناره

والمعدن هو ذاك الذي يشتغل بحرق الارض ويخرج التراب من الحفرة . وكان سفرنا من سان فرنسيسكو في ... ووصولنا الى ستوكتون في ...

وبخروجنا من خليج سان بابلو نظرنا الى يسارنا خمسة او ستة جزائر ما كانت سميت بعد ثم وصلنا الى حدود ساكرامنتو وسان جوا كان وتبعنا طريق سان جوا كان الى جهة الجنوب

وكان الشلاّل الاول هناك مؤلفاً من مجموع ثلاثة انهر صغيرة :

نهير كوزيرن ونهير موكلس ونهير ثالث لم يعرف له اسم بعد . وهذه الانهر تسقي السهول المخصبة التي صارت اليوم مكسوّة بالحشائش البرية واخصها الخردل ذي الزهر الاصفر البديع اللامع الذي ينفرط على اوراق السنديان المقتمة وينتثر هباءً ساطعاً كالذهب وتسافر الامم لجلبه

ومن مسافة قصيرة الى اخرى ترى هناك اكاماً مغطاة بالشعير الجميل الذي نظراً لعلوه يخفي الانسان اذا دخل فيه وهو راكب فرسه . والى عشرين ميلا بعيداً من تلك البقعة يوجد النهير المسمى كالافيراس الذي يصب في سان جواكان وهو يسقي في مجراه مروجاً واسعة من الاعشاب اللطيفة المموّهة بالشمس وعلى جانبه زرع السنديان وشجيرات جميلة رايناها مكللة بالزهور الزرقاء وهي تنشر الينا رائحتها الزكية المعبّقة

وفي طريقنا اشترينا بغلين ومؤنتنا وزادنا من مدينة ستوكتون المشيّدة حديثاً كما يظهر من اسمها اذ انها اقيمت منذ عامين فقط . وقد دفعنا ثمن البغلين خمسمائة وخمسين افرنكا والدقيق اشتريناه بعشرين افرنكا فبلغ وزنه لحد الخمسين ليبرة اخذناها باسعارمتهاودة لشدة بخلنا وفرط اقتصادنا وابتعنا ايضاً فخذي خنزير مملحين بستة واربعين افرنكاً وخمس عشرة ليبرة من البقسماط كل واحدة بافرنكين وخمسين سنتيماً وقدراً من دهن الخنزير المذوّب كل ليبرة بخمسة افرنكات وعشرين ليبرة من اللوبية واربع ليبرات من الملح

وبعد مشترى هذه الاشياء كلها وكلفة الطريق من سان فرنسيسكو الى ستوكتون لم يبقَ لي من الالفي افرنك سوي خمسماية لاغير

فحملنا ادواتنا على البغل الواحد ومؤنتنا على الآخر وتوجهنا الى محلة سونورا التي تبعد اربعين فرسخاً عن مدينة ستوكتون وموقعها فوق

مورمون ديجانس بين نهر ستانيسلاس ونهر توليم . وباجتيازنا تلك البقعة عزمنا ان نتصيد شيئًا لان بندقيتي والحربة والفرود كانت بعدها جديدة لم تستعمل البتة وتيليه كان صيادًا ماهرًا ومسلحًا جيدًا نظيري

وبالمسافة من ستوكتون الى ستانيسلاس اي النهر الاول الذي التقينا يجتاز الانسان سهولا مخصبة مزروعة بالاشجار المزينة بالازهار الزرقاء الجميلة التي تكلمت عنها ولما فحصتها عن قرب عرفت انها زهور الترمس . وفي تلك الاشجار كانت تعشش طيور جميلة كابو القول الازرق الجميل والعقعق المبرقش بالالوان اللطيفة والديك البري والحجل البديع المشهور بشوشته الخصوصية عند اهالي كاليفورنيا .

وقد صادفنا من الحيوانات ذات القوائم الاربع انواعًا مختلفة من القرقدان الرمادي اللون والارانب البرية ذوات الاذان الكبيرة والارانب التي لا تعظم جثتها عن جثة الجرذان . واردنا ان نصطاد بعض التيوس الجبلية لكن لم نفز بقنص شيء منها

وبعد ستانيسلاس قطعنا جسرًا ومررنا بين احراش متكاثفة الى ان بلغنا الدرجات الاولى من الجبل . وحينما كنا لا نتعرج عن الطريق المسلوك يمينًا او شمالا لاجل الصيد كان سيرنا جميلاً جدًا والمسافة سهلة مطروقة لسبب مرور العربات والبغال التي كنا نصادفها في كل وقت ونلتقي بالقوافل الناقلة زادًا وبضاعة الى اماكن الشغل او كنا نراها راجعة متفرغة لجلب الاحمال من ستوكتون او من سان فرنسيسكو

ولما نشر الليل اجنحته السوداء نصبنا الخيمة ورقدنا ملتفين بلحفنا . وكان وصولنا الى سونورا في اليوم الخامس بعد رحيلنا من ستوكتون . لكننا لم نمكث فيها اكثر من اربع وعشرين ساعة حتى علمنا من بعض

الاصحاب الذين كانوا سبقونا اليها ان معادنها قليلة وارضها قاحلة واشاروا علينا بالذهاب الى جهة باسوديل بان التي اكتشف التبر فيها حديثاً ومعادنها وافرة مخصبة

وارض باسوديل بان واقعة في وادٍ عميق بين جبلين وهي تبعد عن سونورا اربعة فراسخ فقط ويوجد طريق ظاهر مسلوك بين مرحلة سونورا وبينها والمسافة التي سلكناها بين الغابات الواسعة الكثيرة فيها اشجار السنديان والراتينج لقينا فيها صيداً وافراً وطيباً .

وبما ان وصولنا الى باسوديل بان كان مؤخراً اي الساعة الخامسة مساء لم يسمح لنا الوقت الا ان نرعى بغلينا وننصب الخيمة ونصنع عشائنا . لكن شوقنا للشغل كان شديداً حتى اننا بادرنا بالتفتيش على مكان نحفره في تلك العشية . فاخبرونا انه يجب التماس الرخصة من القاضي المقيم هنالك وليس حسب مرغوبنا . فذهبنا في الحال الى القاضي فوجدناه قاطناً خيمة كبقية المشتغلين بالتبر . ولكي ينتفع من اوقات البطالة كان يبيع انواعاً من المشروبات لكل من يشاء من المقيمين هنالك

ولحسن الحظ لقيناه رجلاً شجاعاً اديباً لطيفاً كريماً قبلنا بالانس والترحاب . ولما علم افراغ صبرنا قادنا في ذلك المساء الى مكان قاسه بحرابه لئلا نتجاوز الحدود ثم ارجعنا بمعيته واجلسنا عنده برهة من الزمان حيث شربنا كاس شراب واخيراً حوّلنا الى خيمتنا

وفي الغد عند الساعة السابعة صباحاً بادرنا الى العمل ونبشنا الارض باجتهاد مفرط الى ان بلغنا عمق ستة اقدام مربعة وبعد قدمين الى الاسفل وجدنا صخرة وهذه اللقية شوشت افكارنا وعربست شغلنا حيث

لم يكن معنا ادوات لاخراجها او لكسرها حينئذٍ فمنا الحفر من تحتها الى ان قفزت مع قليل من الغبار الناعم

وكان شوقنا واجتهادنا شديدين وتجددت قوتنا حتى اننا لو صادفنا بناية عظيمة لدفعناها بعزم غير مبالين بالمشقة

فاستمرينا على ذلك المنوال مدة خمسة ايام ونحن لا نخرج من الحفرة سوى الحجار والتراب وفي اليوم السادس شاهدنا الارض محمرَّة قليلاً واستبشرنا باختفاء التبر فيها . وذلك التراب الاحمر يعلو عن التبر من مساحة قدم الى قدمين والذهب ناعم خفيف لين جدًا عند لمسهِ

وبوصولنا الى اسفل ملأنا الاناء واسرعنا الى الساقية الصغيرة التي في باسوديل بان حيث باشرنا بالغسيل وحصلنا على كمية من التبر تساوي قيمة العشرة افرنكات فقط

ومع ذلك لم نيأس بل فرحنا جدًا لا بسبب الذهب بل لاننا اول مرة حصدنا تبرًا بايدينا وهذه التجربة المعتدلة جعلتنا ان نتشجع

ثم اشتغلنا ايضًا مدة ثمانية ايام الى ان بلغ ما جنيناهُ من التبر مساويًا لقيمة ثمانين افرنكا . وحينئذ توقفنا عن العمل وعزمنا على الرحيل من تلك الناحية لان مؤنتنا كادت تفرغ والتبر وحده لا يقيت الانسان وقد قيل لنا ان مكاسب السير انيفادا جزيلة فحملنا بغلينا واخذنا الخيمة وسرنا تحت عناية الله وذلك في اول ايار سنة ١٨٥٠

﴿ الفصل الثامن ﴾

(في السيرانيفادا)

ان السيرانيفادا المسماة ايضاً السلسلة المثلجة التي قصدنا الذهاب اليها هي ممتدة في كل بلاد كاليفورنيا من الشمال فالشمال الغربي الى الجنوب فالجنوب الشرقي وهي اعلى سلاسل جبال كاليفورنيا يستمر الثلج عليها ولا يفارقها البتة وهي متسعة جداً والمسافة التي بين القمة الواحدة والاخرى متساوية حتى يخال للناظر انها سهول خشبية فسيحة ترتفع من بينها اطوار بركانية تعلو عن مساواة سطح البحر من اثني عشر الى خمسة عشر الف قدم

ومن تلك الاطواد المتنحية والمغطاة بالثلج صيفاً وشتاءً أُخذ اسم السيرانيفادا لكل السلسلة وهي مرتفعة رويداً رويداً من سطح الى آخر حيث لا يوجد على السفح الاول سوى التلول واما البقية فكلها جبال تعلو بتدريج الى ان تقدم لناحية الثلوج الدائمة والمسافة من الاسفل الى الاعلى لا تزيد عن الثمانية والعشرين فرسخاً

وهي منقسمة كجبال الالب الى اقاليم شتى وفيها بعض الاشجار ما عدا جهات يسيرة فترى اشجار السنديان في منحدر الجبل وفوقها الارزثم الصنوبر في الاعلى . وقد شاهدنا النوع الاخير مكللاً رؤوس الجبال في القمة العليا ولقينا منهُ في الاقاليم الاخرى

اما التبر فمركزه بين الجبال الكاليفورنية والسيرانيفادا . وهذه الوديعة الذهبية تجذب الامم افواجاً من كل اقطار العالم . وذاك الوادي العظيم

المسمى توكاريس هو اخصب واغنى وديان كاليفورنيا

في الساعة الحادية عشرة من صباح سفرنا رأينا ان الآناء لا يصلح للغسيل لانهُ لا ياتينا الاَّ بكمية يسيرة فباشرنا في اناء جديد . ولكننا لم نملك شيئاً لشغلهِ وقعرهُ يحتاج اتقانهُ الى اثني عشر لوحاً خشباً عرض كلٍ منها ستة اصابع والطول ثلاثة اقدام

فتحيرنا بسبب ذلك واردنا ان نصنع الالواح بايدينا لولا الجزع من تضييع الفرصة لان وقتنا ثمينٌ ولم نستطع ان نشتريها لان الفاقة لم تسمح لنا بانفاق الدرهم اليسير ما لم تجبرنا الضرورة اليهِ

وفيما نحن على ذلك جاءني فكرٌ وهو ان اذهب وابتاع اخشاباً من المرحلة الاميركية التي تبعد مسافة اثني عشر ميلاً حيث قيل لنا ان الخمر ياتيها في صناديق . فذهبت واشتريت صندوقين قديمين فارغين كلٌ واحدٍ بخمس افرنكات وجلبت ايضاً من المسامير البخسة الاثمان

فبقي علينا مشترى اللوح المصفح بالحديد . ولحسن التقادير وجدت في مسيري قطعةً من الحديد المصفح ظهر لي انها وقعت من جلال بغل قديمة . ثم رجعنا الى الخيمة الساعة الثامنة صباحاً و باشرنا بعمل ذلك الاناء فانهيناهُ في برهة ساعتين وقد اشتغلناهُ بمنشار ومصقلة وسكاكين اخيراً جربناهُ فراينا ان اتعابنا لم تذهب سدىً بل نجحت للغاية

ولم يبقَ لنا سوى التفتيش على الاماكن الجيدة في السير انيفادا . فرحلنا الساعة الحادية عشرة وتسلقنا الجبل الذي كان امامنا فوجدناهُ عسر المسلك جداً واشتد الحر بزيادة فكنا نسعد سائرين في وسط الحشائش العالية التي كنت ذكرتها والبغلان يقوداننا حسب مشتهاهما وقد سلمنا الامر لهما لانهما يعرفان الطريق الاحسن ومع ذلك وقعنا

مرارًا على الارض وكنا نتوقف قليلاً تحت تلك الاشجار اشجار السنديان والراتينج

وفي ذلك الصعود لقينا ماءً جاريًا منحدرًا الى النهر . وحين وصولنا الى الساقية الثانية توقفنا عن المسير حيث تركنا بغلينا يرعيان ويشربان الى ان تغذينا نحن ايضًا . وعند الساعة الخامسة مساءً نهضنا لتتمة طريقنا قاصدين البلوغ الى اعلى الجبل وقد انتهينا الى القمة الساعة التاسعة مساءً

وكان القمر في تلك الليلة جميلاً ولم نرَ في طريقنا ما يزعجنا من الحيوانات المفترسة المؤذية وكنا سمعنا عن تلك الاراضي انها مملوءة من الحيات ذات الاجراس والافاعي والبوا ولكن كل هذه الزحافات تهرب من الانسان ما لم تأتي للاستدفاء بقربه كما سأشرح عنها فيما يأتي

فرقدنا بطمأنينة ونحن نهيئ بالسفر متواعدين ان نستيقظ قبل بزوغ الفجر لتكميل طريقنا وكنا مضطربين من ان يكون انحدار الجبل عسرًا وعرًا

ولما بزغ النهار رأينا امامنا منحدرًا جميلا مغروسًا بالروج الجميلة مزدانًا بالاشجار الشامخة فقطعناهُ ووصلنا الى شواطئ مورفيس المصب العظيم لنهر ستانيسلاس . ولم نصادف صعوبةً لحسن التوفيق لان الماء كان يجري الى كل الجهات بخرير لطيف انيس حتى خيل لنا اننا في بقعة من الفردوس

لكن يا لها من قلة نصيب سعيد فالفردوس الحقيقي لا يكون ارضًا لطالبي الذهب وكما ان الملاك المتبعَ خطوات اليهودي التائه كان يقول لهُ (امش) كذلك الشيطان يتأثر طالب الاموال حيث يقول لهُ (فتش)

ثم وصلنا الى قرب النهر فرأينا ان شاطئيه صخريان حتى اننا لم نتمكن من اجتياز الوعر الا في مدة ساعة كاملة ونزلنا بعيدا عن علو الجبل مسافة كيلومتر بعد ما سرنا على الشاطئ مسافة سبع ساعات وتلك الاماكن هي من مخدرات السيرانيفادا الاولية

وفي الغد عند طلوع الفجر مشينا في طريقنا ومن العجب اننا لم نصادف بشرا قط منذ بارحنا سونورا . قد سافر قبلنا عدة اشخاص الى تلك الجهات في زمن ذوبان الثلج ولكن منعهم عن الشغل انحدار المياه من الجبال التي كانت تغطي السهول الواطئة الموجود فيها التبر

ونحو الساعة العاشرة صباحاً بلغنا الطرف المقصود ونظرنا آثار بعض اشغال قديمة في السهول المرتفعة والمنخفضة وهذه المقدمة اكدت لنا وجود التبر . فنصبنا خيمتنا تاركين دوابنا ترعى و بادرنا في الحال مفتشين على مكان للعمل ولم يكن معنا دليل لمعرفة جودة الاراضي فسلمنا الاختيار للمقادير طالبين العون من العلي و باشرنا بالشغل لكن ما حفرنا عمق ستة اقدام الا وانفجرت المياه من تحت معاولنا فلم نتمكن من تتمة عملنا

اخيرا تركنا المنحدر الاول الذي امامنا وحفرنا حفرتين لكننا لم نستفد شيئا لان الماء كان يقابلنا في كل ناحية . مع ذلك لم نيأس حيث صادفنا بعضاً من الخطوط الحمراء التي لم تجدنا نفعا بعد الغسل . ثم شرعنا نحفر عند تعاريج الساقية وعرضها فالتقينا بنقيطات ذهبية زهيدة جدا واذ ذاك رجعنا الى الخيمة وقد فترت همتنا ورأينا الاحلام الخفيفة مهولة ومرعبة لاننا كنا قد صرفنا ثلاثمائة فرنك ولم نحصل من التبر ما يزيد عن قيمة مائتين فقط .

وكنا تغذينا بقابلية جيدة لان قوانا خارت من اليأس والضنك والجوع

وكان غذاؤنا من الشوربة بلحم الجنبون مع قليل من اللوبية القديمة واكلنا كعكا مبروما عوضاً عن الخبز . وذلك الكعك هو من الاقراص المصنوعة من الدقيق و يبرم باليد و يخبز تحت الرماد . و بعد انتهاء العشاء استعدينا للرقاد ليلاً

و بما ان الموضع الذي نزلنا فيه كان مرتفعا عن مساواة سطح البحر مسافة ثلاثة آلاف قدم اعني انه كان باردا جدا قد جعلنا نار عشائنا كثيرة وتركناها في مدخل الخيمة للاستدفاء بها . وكنا ما رقدنا قليلا الا وسمعنا صوتا يئن طويلا من جهة بعيدة واذ طرق اذنينا ذلك الصراخ نهضنا بسرعة كلية و بحركة خفيفة ومددنا الايدي نحو بنادقنا و بعد برهة دوت اصوات شبيهة بالاولى بل وسريعة اكثر منها فتحققنا اذ ذاك ان الزئير هو نباح الذئاب وكانها كانت نازلة من الجبل الذي اجتزناه صباحاً لان الصراخ تزايد واقترب الينا

حينئذ دفعنا الاغطية بعزم ووثبنا مع بنادقنا . انما الرعبة كانت قصيرة لان الذئاب تنحت الى جهة مورفيس واختفت في السيرانيفادا بدون ان تؤذي احدا منا

وكان خوفنا الخصوصي على بغلينا المربوطين بعيدا منا مسافة اربعين خطوة وحينما خرجنا والبنادق في ايدينا قربناهما الى الخيمة وجلسنا منتظرين بزوغ الفجر . لكن بقية الليل كانت رائقة فرقدنا الى الصباح وما اقبل النهار عاودنا الى المسير متأثرين الخطوات السابقه وعوضاً من ان نصعد مجرى المورفيس نزلناه

ثم توقفنا نحو الساعة الحادية عشرة ونصف لاجل الغذاء وعند الساعة الواحدة ابتدأنا بحفر الارض متأملين وجود ما يجبر خاطرنا . فوجدنا

ايضاً قليلا من الماء الذي لم يعاكسنا في تتميم شغلنا وبعد عمق ستة اقدام بدت الارض المحمرة بالظهور امامنا واذ ذاك تجددت قوانا وصار الشغل لذيذا جدا ومقبولا وبعد الجد والعناء مدة خمس ساعات اخذنا ذلك التراب وغسلناه واستخرجنا منه اوقية من التبر تساوي قيمة مائة فرنك تقريباً

ولما اختبرنا جودة ذلك الموضع قصدنا البقاء فيه ثم ذهبنا الى الخيمة فرحين اكثر من الامس متعهدين غدا سعيدا مضاعفاً للكمية التي اشتغلنا بها في الخمس الساعات

وفي تلك العشية ربطنا بغلينا بالقرب من الخيمة واوقدنا نارا عظيمة ومن خوفنا لئلا ينقصنا الحطب ليلا اخذ تيليه فأسا ليحطب حزمة بينما كنت مشغولا بتهيئة العشاء . وبعد هنيهة شاهدته راجعا في نور القمر ومتقدماً نحو الخيمة ولم يكن معه حزمة بل يسير الهوينا متخلفا الى الوراء وعيناه تترقبان ملاحظة من يعاكسه في منتصف ظلام الليل . فعند ذلك سألته قائلا اخبرني ماذا حصل ؟

— فاجابني انه لم يحدث شيء بل ان الذئاب محيطة بنا هذه الليلة وستهلكنا بلا محالة

— آه كيف ذلك انني لا اصدق

— قد نظرت واحدا يا عزيزي

— وهل رأيت ذئباً

— نعم لمحته نازلا على الجبل . حينئذ تأكدنا حقيقة الخطر ووقفنا مبهوتين

— اين هو الآن

— لا يبعد عن ههنا اكثر من مائة خطوة . وقد نظرته واقفا لا يتحرك شاخصاً اليَّ ففعلت كذلك وقد طال الوقت ونحن على هذه الحالة وجزعاً من ان تقلق من غيبتي رجعت اليك على الفور

— وهو ماذا فعل ؟

— لم يفعل شيئا البتة واظن بانه تم مسيرهُ

— فقلت له لنأخذ فرودتنا ونذهب نستفحص ذلك عن قرب . فحملناها وكانتا محشوتين رصاصاً من العشية وسبق تيليه امامي وانا تبعته متأثرا خطواتهِ

ثم توقف بعيدا عن النهر مسافة ثلاثين خطوة وامرني بالسكوت مشيرا باصبعهِ جهة الذئب الرابض على شاطئ احدى السواقي الجارية التي تصب في المورفيس . واذ ذاك لم يكن عندنا ريبٌ في رؤيتهِ لاننا شاهدناهُ حقاً واحدقنا بصرنا بعينيهِ القادحتين نارا الموجهتين الينا . وفي الحال اطلقنا بارودتينا وصوّبناهما جيدا عليهِ فاصابا موضعاً واحدا وارتمى الذئب متدحرجاً في الساقية ورأسهُ يعدو قدامهُ . وحينما دفعنا الضربتين سوية رنّت الجبال ودوت كهدير الرعد فكان فزعنا شديدا لكننا ذهبنا الى الذئب والتقيناهُ مائتاً لا يبدي حراكاً لان الرصاصة الواحدة اصابت رقبته والثانية خرقت صدرهُ . اخيرا سحبناهُ الى الخيمة

وكانت تلك الليلة هائلة جدا والذئاب حائمة حولنا تتمشى وترجع وبغلانا خافا جدا وكان جسمهما يرتجف اضطراباً وارتعاشا . ومع ان النار تخيف هذه الحيوانات لم يطمأن بالنا ولم يهدأ روعنا ولم نذق الوسن كل تلك الليلة بل بقينا جالسين متسلحين لمقاتلة العدو منتظرين بزوغ النهار .

الفصل التاسع

(الاميركان)

لا يمكن الانسان ان يفتكر في الحالة والبقعة اللتين كنا نرقد فيهما الاَّ ويرثي لحالتنا التعيسة . لان الذئاب المحيطة بنا اذا نحت ليلةً واحدةً تعود في الليالي التالية وتفترسنا مع دوابنا ايضاً مع اننا حين حضورنا الى كاليفورنيا لم يخطر على بالنا فكرٌ من هذه الاخطار الشديدة الجمة

وفي الغد صباحاً نزلنا الى شاطئ النهير ونحن نحفر حفراً في مسيرنا وكنا نلتقط تبراً يسيراً جداً والحق اننا لم نجد مكاناً يساوي قيمة الذي تركناهُ حيث لم نجمع من كل حفرة الاَّ درة صغيرة لا تبلغ قيمتها اكثر من افرنك واحد فكنا رغماً عن الذئاب نتشاور فيما بيننا للرجوع ثانيةً اليه . ثم فيما نحن نتكلم بهذا الصدد نهاراً نظرنا بغتةً دباً اسود اللون ينزل مهرولاً من اعلى الجبل

فكانت المحنة شديدة وقد اشتهينا ان نطلق النار عليه لولا خوفنا من الرواية التي يعتقدون بها اهالي كاليفورنيا القائلين . ان الدبّ اذا جرحهُ صيادٌ يذهب حالاً و يصحب بقية ارفاقه ليفترس الصياد لا محالة . مع ذلك نحن لم نذعن لحقيقة هذا القول لكن العزلة والانفراد وجهلنا تلك الاراضي الجديدة جعلتنا ان نقع في الخوف والجبانة . حينئذٍ قصدنا الرجوع توّاً الى باسوديل بان للعمل فيها فلففنا خيمتنا وحملنا بغلينا وسرنا متوجهين نحو الشرق

وفي الغد نظرنا تيساً يرعى في قطعة ارض خضراء فاطلقنا ناراً عليه

ومسكناهُ ثم قطعناهُ اجزاء ووضعناهُ على بغلنا وفي باسوديل بان بعنا نصفه بثمانين افرنكا فكان لنا غنيمة مقدّرة

وحين عودتنا الى مكان الشغل لقينا ان الحفرة التي اشتغلنا فيها قليلاً قد عمل فيها وتركت لقلة وجود الادوات لان الوفاق لم يكن سائدا في تلك الزمرة وفروض الشركة وسنتها مضادة للاخلاق الفرنسوية اما الاميركان فيظهرون الاخاء والاصطفاء في شركتهم ويخضعون بعضهم لبعض محترمين العظام الطماعين

وقد شاهدت وحضرت نموذجاً من طمع الاطبآء في كاليفورنيا وهو ان رجلا من الاميركان مرض شديدا فدعا واحدا من الاطبآء ابناء وطنه لمعالجته فلبّى امرهُ واتى لزيارته ثلاث دفعات وطلب منهُ الاجرة اوقية من التبر ثم باعهُ شراباً ممزوجاً بالكينا واخذ اوقيتين ايضاً حتى صارت الكمية تساوي قيمة اربعمائة وثمانين افرنكا . وقد قيل لنا اكثر من مرة ان المريض في كاليفورنيا يرغب قبول الموت ويفضله عن طلب الطبيب

وكان عدد المشتغلين في باسوديل بان حين وصولنا لا يزيد عن المائة والثلاثين رجلاً واجتمع ايضاً نحو ثلاثين رجلا من فرنسا وبوردو وباريس وكانوا يشتغلون وراء النهر على بعد قليل عن المرحلة واستمروا على هذا المنوال مدة اربعة اشهر فقط حيث فرغ زادهم والدراهم التي في جيوبهم . وفي الوقت الذي ازمعوا فيه ان يحصدوا ثمرة اعمالهم ليشتغلوا ما جنتهُ يداهم فاجأهم بغتة جيش من الاميركان ملتأم من مائة وعشرين رجلا وكلهم مبهرجون بالاسلحة الكاملة ثم نزلوا اليهم فجأةً وارعبوهم قائلين . ان ارض باسوديل بان مختصة بحاكمهم والنهر ليس الا مجرى مياه الاميركان وانذروهم حالا بالخروج من مقاطعتهم وتوعدوهم

بالهلاك والموت اذا خالفوا امرهم

ومع ذلك لم يتعدَّ الفرنسويون في بادئ امرهم ولم يشتغلوا الا بحقوقهم ولكن القاضي ساعد ابناء وطنه لانه كان اميركيا فالتزم الفرنسويون ان يخضعوا رغماً وتوجه البعض منهم الى سان فرنسيسكو والبعض الى سونورا والى مورفيس والبقية الذين لم يبارحوا تلك المقاطعة لبثوا يشتغلون بارباح زهيدة جداً

على ان تلك السرقة وذلك الاختلاس لم يجدِ الاميركان نفعاً لان حادثة السلب قد انتشرت في كل النواحي فتشدَّد الفرنسويون الذين في مورمون وفي جامس تون واسرعوا وكمنوا بين الجبلين ليلاً وارجعوا مياه النهر الذي سدَّه الاميركان الى مجراها الطبيعي. وفي الغد نظر الاميركان ان باسوديل بان جار كعادتهِ فلم يستطيعوا المعاندة بعد مرور اربعة اشهر فاقت ارباحها عن المليون فرنك

اما نحن فلما نظرنا تلك الضوضاء هجرنا باسوديل بان ورجعنا الى مرحلة سونورا الى الارض التي حددَّها لنا القاضي اولا وكان وصولنا اليها الساعة الحادية عشرة مساء ونصبنا الخيمة في المكان الذي اتينا اليه قبلاً وهيأنا العشاء الذي لم يزد عن عادته الا بقطعة من صيد مقتنص حديثاً

وفي الغد بادرنا مسرعين واشتغلنا بحفرة دعيت كريزوت وهي مخروطة في مكان خزفي ترابها ممزوج بالحزف والحجر وهذه المادَّة تبدو كالقشور الرقيقة وتذوب في الماء. وكان مكسبنا وقتئذٍ حسناً وافياً لقوتنا الضروري ولولا فراغ الزاد لكانت ارباحنا وافرة لان الكمية التي كنا نجمعها يومياً تبلغ الثمانين افرنكا ولبثنا على هذا المنوال مدة اسبوع كامل اي من الاثنين صباحاً الى السبت مساء

ونهار الاحد وهو يوم الراحة يكف الجميع عن العمل بالمعادن فاستغنمنا الفرصة وذهبنا الى الصيد وبما ان الطريدة قد تناقصت في تلك الضواحي لم نكسب سوى صيدًا يسيرًا وفي المساء رجعنا كئيبين لان نهارنا لم يوافينا بربح . وفيما نحن نراوح الطريق تلاقينا برجلٍ فرنسوي قد تعاطى مهنة عشيٍ وقال لنا عن سوء حالتهِ وبين سرَّ افكاره التائهة وهو يفتش على صنعةٍ ليعيش بها ولو انها حراثة الارض في كاليفورنيا فلما راينا حالتهُ تأثرنا جدًا وردعناهُ عن مقصدهِ واشرنا عليهِ بالمسير معنا ولم يملك وقتئذٍ سوى لحافهِ والفاقة والبؤس والعناء والشقاء كانت تلوح على هيئتهِ

فلبث عندنا بضعة ايام يقتات من غذائنا وصيدنا ثم ارتأينا ان نجعله يمكث عندنا لانهُ يعرف اللغة المكسيكية وبعد امتحان اخلاقه مدةً من الايام قبلناهُ عضوًا في رفقتنا . وقد وافانا بفائدة عظيمة وعلمنا كيفية عمل الخبز لاننا كنا نعجن الدقيق في الآنية التي تغسل فيها التبر ثم نضع قليلاً من الجمر على الارض وفوقهُ العجين ونغطيه كما تصنع البطاطا وفي النهاية كنا نفركهُ ليسقط الرماد عنهُ ونا كله ولكن ذلك الخبز الثقيل يسبب توفيرا لان المعدة لا تقبل منهُ الاَّ قليلا . وكان ثمن ليبرة الدقيق ثلاثة افرنكات في اماكن الشغل فليتأمل القارئ صعوبة العيشة في بلاد التبر

ويوم الاثنين صباحاً بادرنا الى حفر حفرةٍ اخرى في المكان المسمى باكي المجاور لنا فوجدنا نحو ستمائة شخص سبقونا اليه . حينئذٍ ابتعدنا قليلاً وثقبنا الارض فلم نرى اولا سوى ترابًا ورمادا دلالة على ان تلك الاراضي بركانية وبعده ظهر الغبار المحمرُّ واذ ذاك باشرنا في غسله

وحينما جمعنا قيمة ثمانين افرنكا اذا بتيليه وجد بغتةً سبيكة يساوي

والهناء والحبور . وحدث ذلك في الرابع والعشرين من شهر ايار

وتلك الملقية نشطت عزائمنا وقوّت اجتهادنا وضاعفت كدنا فعدنا الى الشغل بهمة واعتناء وفي ثلاثة ايام جمعنا معا ما تبلغ قيمته الالفين واربعمائة افرنكا ذهبا

وبينما نحن سائرون الى العمل حسب جاري العادة اذا بنا قد لمحنا اعلانات معلقة على الاشجار منذرة بما يأتي وهو انه لا يستطيع غريب ولا يتجرأ ان يحفر حفرة ما لم يدفع مائتين وخمسين فرنكا للحكومة الاميركية عن كل شخص يشاء ان يشتغل في المعادن وهذا الانذار من السابع والعشرين من شهر ايار

فشرع كل منا يفتكر في حالته لان السنة حقيقية اكيدة لم يخالطها المزاح والهزء . وفيما نحن في المشورة عما يجب عمله من دون ان نتعاطى امرا سوى الاهتمام في المسألة والحظ المنكود اذا بجماعة من الاميركان قد اقبلوا نحو الساعة العاشرة مسلحين وطالبين الخراج للحكومة ولم يصادفوا سوى النفور والرفض

وكان ذلك اشارة الى الحرب . ولم يبلغ عدد الفرنسويين وقتئذ اكثر من مائة وثلاثين رجلا

اما المكسيكيون المشتغلون في المعادن فاجتمعوا حولنا قائلين . ان الارض تحت سلطتهم كما انها مختصة بالاميركان . وبلغ عدد الحزب الاول اربعة آلاف واما الآخرون فنحو ثلاثة آلاف

وحينئذ امرونا ان نتهيأ للمدافعة ونجهز جيشاً من الفرنسويين وبعد المعركة الاولى القليلة الاهمية تركونا لئلا يقع الجميع علينا ويبيد العدد اليسير . لكن الصلح التام لم يتم لاننا كنا نسمع بوقوع خمسة او ستة من

القتلى في اماكن الشغل وليس من يرتكب هذا الاثم الفظيع الا الاميركان او اهالي المكسيك

وكيفية القتل كانت مختلفة . فمن الاميركان من كانوا يتقدمون الى الحفرة و بدون مشاجرة يقتلون الرجل بطلقة غدّارة او يهلكون الاخر بضربة من قرابينتهم . واما المكسيكيون فكان انتقامهم مختلفاً عن الاميركان (والمكسيكيون الذين نتكلم عنهم الآن هم من مقاطعة سونورا) لان المكسيكي كان يتقدم الى عدوه و يتحدث معه مستفهماً منه عن جودة الحفرة التي يشتغل فيها وفيما هما يتجاذبان اطراف الحديث يسحب المكسيكي سكينه المعدّة للعمل المشوم و يقتل الرجل بضربة واحدة يرميه مختبطاً بدمه

قد سمعنا ان اثنين من وطنينا ماتوا قتلاً لكن لم يقتلهما الاّ الاميركان

اخيراً لما رأينا ان ذلك المكان سيصير مذبحاً وجزعنا لئلا نتعرّض للخطر وتبقى عظامنا في تلك الارض نهضنا متشددين وشمرنا عن ساعد الهمة والسعي وارسلنا سعاة الى مورمون ومورفيس وجامس توَن وجاكسون طالبين النجدة والمعونة من الفرنسويين اخواننا

وفي الغد نظرنا ثلاثمائة وخمسين رجلاً مقبلين الينا وكلهم افرنسويون ومتسلحون بالاسلحة الكاملة

وكذلك ارسل الاميركان يطلبون المساعدة من ابناء وطنهم فحضر من اماكن الشغل المجاورة نحو مائة رجل

وعند الساعة الثامنة مساء اتانا رسول من المساعدة الفرنسوية معلناً ان المرحلة اقامت بين الجبلين حيث الممر فلما سمعنا ذلك اخذنا الاسلحة وتركنا اشغالنا وذهبنا للانضمام مع المقبلين

ثم ان بعضاً من الاميركان المتمدنين عرفوا خطاءهم فتركوا بني وطنهم واتحدوا معنا وكان عددهم يبلغ المائتين فلما رأى البقية ذواتهم مهزومين ولوّا هاربين مختفين عن العيان

اما نحن فصعدنا قمة الجبلين المطلة على الطريق و بقي نحو ثلاثمائة وخمسون فارساً من الوطنيين في الممر ذاته وكنا وقتئذٍ سبعمائة رجلا وكان مركزنا حسناً جداً وقد استطعنا ان نسد طرقات ستوكتون بلا حاجزٍ واوقفنا عدةً من الاميركان واناساً غيرهم

ومضى الليل كله بالسهر وفي الغد نظرنا فرقة عساكر مقبلة الينا مؤلفة من مائة وخمسين اميركانياً فاختبأنا بين الاعشاب والاشجار ولبثت بعض الرؤوس ظاهرة من وراء المتاريس المرتفعة على الطريق . وقد ظنّ الاميركان ان عددهم يكفي لابادتنا وشرعوا في القتال

وحينئذ وثبنا من كل ناحية واضطرم الجبلان في آن واحد الى ان وقع من الاعداء عشرون رجلا وانهزم الباقون متبددين في السهول ومختبئين في الاحراش والغابات

ثم ظهروا ثانيةً في الغد والقاضي يسير امامهم والقندق مرفوع امامه واتفق الجميع ان يعقدوا هدنةً لانهم حرّروا الى الحاكم ملتمسين مساعدته

وبينما نحن في انتظار الجواب رجعنا الى الشغل بحرية ونشاط وسرعة الى ان وصل التحرير وفيه تخفيض الخراج الى مائة افرنك وسلمت الادارة الى القاضي بالتصرف مع الغرباء حسب مشيئةٍ وصارت لهُ السلطة في ابادة الغرباء او في نجاتهم

فحينما سمعنا ذلك لم تبقَ لنا وسيلة ولا حيلة للمكث في سونورا فبعنا ادواتنا واشترينا زاداً لنصل به الى ستوكتون وقد عزمنا على الرجوع

الى سان فرنسيسكو ومع ذلك لم نعرف نشتغل فيها وليست لنا مصلحة هناك ولكن ما العمل ؟

الاَّ اننا اتممنا مقصدنا وبعنا بغلينا في ستوكتون بالف فرنك وابتعنا مؤنة من الزاد وذهبنا لنأخذ موضعاً في الباخرة الذهاب الى سان فرنسيسكو . وهذه المرة كان سفرنا سريعاً ونظرنا في طريقنا عدداً لا يحصى من الذئاب البرية والسلاحف التي تعيش على سواحل جواكان المغطاة بالقصب وشاهدنا من ورآء ذلك القصب احراشاً ومستنقعات تسكنها الطيور الجميلة مع ان الحرَّ كان شديداً هناك ولا يستطع الانسان ان يقيم فيها الاَّ وتصيبه حمى مؤذية خبيثة

والى الجهة الثانية من القصب والاحراش توجد مروج جيدة وفيها عددٌ لا يحصى من قطعان البقر والحر كان مزداداً في ذلك المرج ولم نعلم سبباً لذلك فسأنا الدليل المرافق لنا فلم يقدر ان يشرح لنا عن اصل تلك الحرارة الشديدة الخانقة

قد استمرت المسافة مدة ثلاثة ايام متوالية وبوصولنا الى النهر كابدنا مشقة عظيمة للعبور في ذلك الثغر لان البحر كان مرتفعاً ومزبداً والريح معاكسةً لنا

وبعد المعاناة الشديدة والتعب الجزيل غلبنا ذلك الهياج المضاعف وانتصرنا على الصعوبة ويوم الخميس صباحاً الواقع في الثاني والعشرين من شهر حزيران دخلنا سان فرنسيسو وتعجبنا لما رأينا من البيوت الجميلة والابنية الشاهقة والرصيف الجديد الذي شيدت به حديثاً في مدة الاربع شهور زمن غيبوبتنا

وقد وصلنا اليها على حالة يرثى لها من شدة الضنك والتعب والعذاب

والشقاء فقصدنا الراحة مدة يومين او ثلاثة للاطمئنان والهدو وكي تنتعش ارواحنا وتستكن افئدتنا لنستطيع ان نتعاطى شغلاً

اما رفيقنا العشي فبقي في ارض المعادن

الفصل العاشر

(النار في سان فرنسيسكو)

قد سبقت وعلمت نفسي بالراحة مدة ثلاثة ايام ولكن الوقت لم يطب لنا فذهبت آمالي سدىً . ومنذ وصولنا باشرنا في تصليح الخيمة من الملاآت القديمة وكنا رغبنا النزول في فندقٍ لو ساعدتنا دراهمنا على ذلك فارتأينا ان نجعل مركز اقامتنا في الحلة الفرنسوية المعروفة من لقبها لانها هي المحل الوحيد لاجتماع وطنيينا الاعزاء وكان قد شيد فيها مدة غيابنا اثنا عشر كوخاً لمأوى الغسالين والغسالات

وقبل رحيلنا الى ارض المعادن كنا اودعنا صناديقنا باجرة عند شيخ الماني خصص نفسهُ لتلك المهنة لانهُ كان عاجزاً لا يستطيع العمل فاستلم تلك الوظيفة وهي المحافظة وحراسة حوائج المنتقلين الى بلاد التبر وكان قد بنى بيتاً صغيراً لحفظ الصناديق وكسب من ذلك العمل مبلغاً وافراً لان اجرة الصندوق الكبير تساوي خمسة عشر افرنكاً شهرياً والصغير نصف القيمة حتى بلغ معدّل حسابهِ شهرياً من خمسة عشر الى ثمانية عشر مائة افرنكاً

وما نصبنا خيمتنا ووضعنا صناديقنا الا وسمعنا صراخاً هائلاً مبشراً بوجود « النار » لكن تلك البشارة المشومة كانت سيئة جداً في المدينة بسبب الابنية الخشبية . وبالحقيقة ان ذلك الصوت انذرنا بالحريقة المضطرمة التي شبت بسعير قوي بين كلاي ستريت وساكرامنتو ستريت وهنالك محلات بائعي الخمر وكل انواع المشروبات والخشب

ثم اندفعت تلك النار الملتهبة بريح من الجهة الشمالية وصارت تعدو بسرعة وتتقدم الينا ومنظرها الشاهق كان يبهر الابصار والعقول ويذيب الافئدة الجلمودية والسنتها الحمراء الجهنمية تبتلع في طريقها معاملاً وخمرا وكحولا

وحينما كانت تبلغ محلا فيه عرق او ارواح مثله كانت تزداد حرارتها لا بل تتضاعف وتصير ملتهبة آكلة وبتغير لونها حالا اذ يقفع شعاع ساطع من وسطها باشكال عديدة ما بين اصفر واحمر وازرق

وقد جرت العادة عند الاميركان انه اذا رأوا حريقة مضطرمة يسرعون ويرمون في وسطها براميلا مملوءة تراباً ناعما ويعتقدون ان البيوت الهابطة تطفي النار . نعم ان المنزل يخمد سعير اللهيب بوقوعه لكن القطع المنتشرة تتدحرج الى آخر الشارع بقرب المساكن البعيدة من النار وتحمي الخشب ليصير ملتهباً كالكبريت

اما اليوم فقد صنعوا لاجل السهولة ان تكون الارض ايضاً خشبية لكي لا تتوقف النار عن مسيرها اذ اشبت في احد الشوارع وذلك لقلة وجود الماء في المدينة حتى صارت الحريقة تسرع في مسيرها وهي تبيد وتذيب كل ما تصادفهُ وليس من مانع يعارضها

ولندور وجود الماء يتكبدون الخسائر العظيمة ثم انهُ يوجد ايضاً اناس

اصحاب مطافئ بادروا حالاً بمطافئهم الكبيرة عند علمهم بشبوب النار وكانوا ينفخون بالمطافئ الفارغة لكي تعجل بالخراب وتبلغ حدودها

ولا نقول ان قلة الاعتناء هي سبب الحريق في سان فرنسيسكو لا بل يوجد اناسٌ يفعلون ذلك لصوالحهم وفائدتهم وقد تأكدنا صحة الامر من الحريقة الحديثة المذكورة لان محلات بائعي الخمر والاخشاب كانت ردمت وتلاشت الاخبار عنها وليس من يتكفل بخسائرها واما الواجهة المقابلة التي لم تحترق فانعمت افئدة اصحابها مرورا وحبورا لما آلت لهم تلك الحادثة بالخير الجزيل والمنفعة

وقد اكدنا برهان شاهدناه باعيننا حيث بيعت شقة الخمر الاعتيادي تبلغ ستمائة الى الثمانمائة فرنك وكانت اولا في العشية قبل الحريقة بمائة افرنك . فلينظر القارئ ويلاحظ ارتفاع الاسعار الجميلة الباهظة

وما زلت اذكر الى الآن ان صديقينا كوتيه وميراندول كانا قاطنين بيتنا مجاورا للحريقة وقد اسرعنا لمساعدتهما ولقيناهما ينقلان الامتعة الى ناحية بعيدة . لكن عملهما هذا وافاهما بخسائر جسيمة لم تنقص عن خرائب الحريقة حيث كانا يدفعان مائة فرنك عن كل نقلة لقواد العربة الذين يحملون الى الجبل الاثاث والآنية وما شاكل

وقد قلنا فيما سبق ان المريض يفضل الموت على عيادة الطبيب لسبب الاجرة الباهظة وكذلك الذين اصيبوا بالحريقة يفضلون ابتلاع النار لامتعتهم عوضاً عن استئجار عربة لنقل حوائجهم عليها وعدا عن ذلك فان اهالي سان فرنسيسكو يحبون عمل الخير ويطلبون نجدة ومساعدة المصابين ومن العجب انهم يعرضون ذواتهم لنقل الاثاث والآنية والامتعة وما شاكل لكن كل من يستلم شيئا يفز به فارّا ويختفي اثره

اما الضوضاء التي يصنعها الاميركان في زمن الحريقة فلا يستطيع لسان ان يشرح عنها لانهم يثيرون هيجانا عظيما فتراهم يذهبون و يأتون يعدون و يزعقون و يدخلون البيوت فيكسرون و يحطمون وخصوصاً يسلبون وحينما يرون ان النار قد انتهت من بيت و ردمته يسرعون الى نبش رماده لعلهم يجدون شيئا مطمورا فيه

وكان بين البيوت بيتٌ صغيرًا من الحديد جلبَ من انكلترا فظنَّ البعض ان النار لا تتوجهُ بل تنجو من شرها لثبات المادة التي شغل منها. وعند شبوب النار اجتمع حوله الجماهير العديدة واجتهد كلٌّ ان يخبئ فيه مجوهراتهِ . لكن يا لها من نار شديدة مهولة فانها لحقت البيت الحديدي ولفته بامواجها الجهنمية المتوقدة المتلألئة ولحسته بلسانها الملتهب ثم ضمتهُ الى سواعدها المشتعلة الى ان ابتدأ الحديد بالاحمرار والتصوّر وصار يئنُّ متفرقعاً نظير البيوت المجاورة ولم يبقَ من البيت ولا مما كان فيهِ سوى شكل قفصٍ مشوَّش الهيئة صغير الحجم لا يستطيع الانسان معرفة هيئته القديمة

اما النار فاستمرت سائرة من الشمال الى الجنوب ولم تتوقف الاَّ في كاليفورنيا ستريت في ذلك الشارع المتسع حيث لم تتملك قوة للمرور فيه رغما عن سطوتها الهائلة وسعيرها الجهنمي

وقد كنا زعمنا اولا ان تلك الحريقة التي شبت بغته تحرّك الصنائع وتسبب الاشغال المتنوعة لعلنا نجد عملا لكن ذهب تصورنا عبثاً لان المحلات المردومة كانت تختص بالاميركان الذين لا يحبون سوى بني جنسهم وقد ساعدوهم في بناء ما هدمَ

وحينما لم نجد عملا في المدينة بعد الجد والتفتيش ارتأيت مع صديقي

تيليه ان نذهب ونتعاطى مهنة الصياد لاننا رأينا رجلا من ابناء وطننا يسمى مسيو انكونت دي بينكريت قد اشتغل بهذه الصنعة واتى بفائدة عظيمة ونجاح غريب لما عنده من اللياقة والهمة والنشاط

وكنا نشاهد مرارا الهمام النشيط الونا (هو شيخ مكسيكي من سان فرنسيسكو) المشهور بصيد الدب فعزمنا ان نفاتحه بما عنّ على بالنا بخصوص الصيد ونبين رغبتنا الشديدة وميلنا المفرط باجتياز المروج ونسأله مرافقتنا في الرأي الجديد الذي اوعزنا المباشرة فيه

فلبّى طلبنا بفرح لا يوصف واراد ان يصحبنا حالا معه الى الجهات التي تغزر فيها انواع الدب كناحية الماريبوزا ووادي تولارلس لكننا امتنعنا وسألناه المساعدة والتعود على صيد الحيوانات الصغيرة نظير الايل والتيس والخنزير والارنب والسنجاب والحجل والحمام واليمام وابو الفول الازرق وما شاكل .

اما آلونا فرفض ذلك في بادئ الامر ولما علم ان المصاريف تتعلق بنا تنازل لرغوبنا وشاء ان يقودنا الى السهول الصخرية التي بين سونوما وبحيرة لاكونا ومن محلة روسيا القديمة الى ساكرامنتو

على ان الاستعدادات اللازمة لتلك المهنة الجديدة ما كانت سوى اقتناء الاسلحة الجيدة . فكانت بنادقنا فائقة الجودة وقد اختبرناها في صيدنا حينما كنا في السيرانيفادا وفي باسوديل بان وعدا عن البنادق وجب ان نشتري زورقا للسفر مرتين في الاسبوع من سونوما الى سان فرنسيسكو

فذهبت الى الميناء وفي الحال وقع بصري على زورق سائرا بالقذف والقلوع فاشتريته ودفعت ثمنه نحو سبعمائه من الفرنكات وابتعنا ايضاً

زاد اسبوع وضعناهُ في القارب مع مؤنة كافية من البارود والرصاص

و يا للغرابة من اننا وجدنا سعر البارود رخيصاً عن ثمنه في فرنسا لان الليبرة كانت باربعة افرنكات فقط واما الرصاص فكان ثمن الليبرة منه مختلفة من افرنكين الى ثلاثة

وكان الونا عنده حصان هرم فاستخدمناه في سفرنا للاحمال او غيرها وذلك نقص علينا مصروفاً زايدا وشكرنا رفيقنا من صميم قلبنا وقبلنا تقدمته بحمدٍ وثناء

اما الخيمة التي صنعناها من ملاآت اسرتنا فلم تكن صالحة لفصل الشتآء بل اكتفينا بها مدة فصل الصيف معللين النفس باقتنآء بدلٍ منها حينما يحل البرد القارس

وعزمنا على المسير في السادس والعشرين من شهر حزيران سنة ١٨٥٠ حيث تركنا صناديقنا وديعة بالراتب ذاته عند صاحبنا الرجل الالماني

حينئذٍ لقبت نفسي بحرياً وتكفلت بقيادة الزورق ومسيره بعد ما نزلت فيه مع تيليه صديقي واما الونا فسافر مع حصانه في احدى البواخر المسافرة الى المعادن التي تقف عند السواحل حيث ينتظر الفرسان بعضهم بعضاً للرحيل معاً الى سونوما

ولما وصلنا قبالة الى الشاطئ اعجبنا بانفسنا وافتخرنا لكن ما جذبنا القارب الى الشاطئ الا وشاهدنا الونا مقبلا الينا وهو يعدو و بارودته على فخذه وقد تردى باردية السيد الكاملة

ثم عجزنا ان نترك قاربنا على الشاطئ لكن الونا جرأنا وثبتنا بالطمأنينة والسكون والراحة . وبما ان خبرته تلك البلاد عظيمة لانه قدم اليها منذ عشرين سنة تاكدنا كلامه واتكلنا على رحمة الله وضمانته وتركنا

زورقنا . اخيرًا حملنا خيمتنا مع المؤنة على الحصان وعلقنا ادوات المطبخ حتى صرنا شبيهين بالنحاسين الذاهبين لبيع مراجلهم المصقولة بالبياض لا كالصيادين . حينئذ تعمقنا في داخل المرج وكان رحيلنا من الجنوب الى الشمال

﴿ الفصل الحادي عشر ﴾

(في الصيد)

قد تكلمنا فيما سبق عن خصب الاراضي في جنوبي كاليفورنيا لكننا لم نشاهد تلك التربة الجيدة الا حينما وضعنا الخطوة الاولى في المروج الممتدة من سونوما الى سانتا روزا لان علو الحشيش الذي مررنا فيه وسطه يقارب التسعة او العشرة اقدام

ورأينا على شطوط المورفيس اشجار الصنوبر النابتة بحجم وعلو لم ينظر قط رجل افرنسوي نظيرها لان ارتفاع الشجرة لا ينقص عن الثلاثمائة قدم وقطرها ينيف عن الاربعة عشر قدما

وكانت شجرة صنوبر عظيمة في شمالي ثغر سان فرنسيسكو فقاسها المسيو موفراس العالم بالطبيعيات فبلغ علوها خمسمائة قدم ودائرتها ستون قدماً وذلك في سنة ١٨٤٢

ونظر دامسون شجرة تقطع في سينيفا فبلغ قطرها حسب قياسه خمسة وعشرين قدماً وقيل انها بلغت من العمر الستة آلاف سنة

كذلك ايضاً يقال عن اراضي كاليفورنيا انها اذا حرثت بمحراس كالذي استعمله فلاحوا فيرجيل تأتي بخيرات عظيمة وثروات جزيلة وافرة

وقد زرع الرهبان قمحاً في ارضهم سنة ١٨٤٩ وسنة ١٨٥٠ حصدوا الواحد مائة وعشرة اضعاف ثم اهملوا زراعة تلك الاراضي في السنة التالية ومع ذلك استغلوا منها ثلثي ما كانوا زرعوه اولا

ومعلوم ان الاراضي المعتدلة التربة في افرانسا تخرج معدلا سنويا الواحد اثنين او ثلاثة والجيدة لا تزيد عن العشرة واما الدرجة العليا فتكون من خمسة عشر الى ثمانية عشر

وايضاً يكفي من الزمن في بلاد كاليفورنيا لنمو شجرة موز من خمسة عشر الى ثمانية عشر شهرا وبعد المدة المذكورة تعطي اثمارها وتموت وقد بلغ عدد ما تطرحه من الموز من ماية وستين الى ماية وثمانين ثمرة ووزنه من ثلاثين الى اربعين كيلوغراما

ان المسيو بواتارد فقد احصى وزن اثمار الموز الذي خرج من ارض لا يزيد طولها عن المائة قدم فبلغ الفي كيلوغراما مع ان المسافة بين الشجرة والاخرى كانت ثلاثة امتار

وتلك البقعة ذاتها التي هي اخصب اراضي بيواسيا بزراعة الموز كانت لا تعطي من الحنطة سوى عشرة كيلوغرامات من الحبوب ومن بذور البطاطا ايضاً ما لا يزيد وزنه عن الكمية المذكورة

قد باشروا منذ زمن يسير بغرس الكرم في كاليفورنيا فنمت تلك الزراعه بخصب عجيب واتت باثمار لذيذة يرسلون منها من مونتري الى سان فرنسيسكو احمالا لا تقدر وذلك العنب لم تشابهه احسن العرائش الموجودة عندنا في فونتانيبلو

فكما ان السهول والغابات والاحراش تعطي الاثمار والحبوب الجيدة وتفيض صيداً حسناً لذيذاً كذلك الانهر تطفح وتكثر فيها الاسماك المختلفة الاجناس كحوت سليمان وغيره . وفي بعض الفصول يُرى على السواحل والخلجان غرابة نادرة وعلى الاخص لجهة مونتري حيث يعوم على وجه الماء ملايين من سمك السردين المطارد من الحيتان ذات الحدبة ثم يعود مفتشاً على ملجاء في المياه القليلة العمق حيث تكون رابضة اطيار البحر المتنوعة الاشكال حتى يندهش الناظر ويخال له ان وجه البحر ليس الا كوارة نحل واسعة ويرى الفضاء مملوًّا من الصياح ورفرفة الاجنحة اما الحيتان فتربض بعيداً منتظرة بفروغ صبر طرد الطيور لسمك السردين لعلها تظفر بالنوع الاخير وتفترسهُ

اما فصول السنة فتقسم في كاليفورنيا الى اثنين وهما الفصل الناشف وفصل الامطار . اما الاخير فيحتوي على الشهور التي ما بين تشرين الاول واخر اذار والفصل الناشف من نيسان الى ايلول

وايام البرد القارس نادرة جداً في فصل الشتاء لان الريح لا تعصف في البرد الا من الجنوب الشرقي فتلطف القساوة وفي ايام الصيف تأتيهم الريح من الشمال الشرقي فتسكن وترطب اشعة الشمس المحرقة

ولما يقبل فصل الشتآء تبتدي السمآء تمطر يومياً وتتزايد من تشرين الاول الى كانون الاول ثم تأخذ في التناقص الى ان تنقطع اصلا في شهر نيسان ولا يكون وقت هطل الغيث الا من الساعة الثانية بعد الظهر الى الساعة السادسة مسآء

وقد بلغنا الى شهر تموز اعني زمن الصحو من السنة واشتدَّ الحر وقتئذٍ من ٢٣ الى ٣٣ درجة وبالاخص منذ الساعة الحادية عشرة صباحاً الى

الساعة الثانية من بعد الظهر حتى كنا غير قادرين على الجري والصيد ولم نجد عملا سوى ان نستريح تحت ظل شجرة من السنديان او الصنوبر ونام قليلا واما المساء والصباح فكانا جميلين جداً . وحينما وصلنا الى المرج بادرنا بصيد البعض من انواع الحجل والارانب والسنجاب لاجل عشائنا

وكان الونا يتركنا لنصطاد ما نرغبه و يذهب وحده مفتشاً على صيدٍ حسناً وكان معه قرابينة انكليزية ذات طلقة واحدة محشوة رصاصاً حسبما لاحظنا واقامت عنده طويلا وقد قصّ علينا انه كان يحشوها اولا بحجارة ثم رصاصاً فتحسنت جداً وفتحت له مسلكا لغزارة الشغل

ثم سرنا مفتكرين فيما تأول لنا اليه صحبة آلونا وبينما نحن على هذا التصوّر نظرناه واقفاً وقد وضع يده على كتفي مشيراً الينا بالبقاء في موضعنا حينئذٍ همست الى تيليه بالاشارة ليتوقف عن مسيره لانه كان بعيداً مني بضعة خطوات . ووقفنا شاخصين

اما آلونا فوضع اصبعه على فيه منبهاً ايانا بحفظ السكوت وان لا نبدي حركة ثم مدّ يده مشيراً الى جبل صغير يرتفع الى شمالنا . فوجّهنا الحاظنا لنرى ما يدلنا عليه لكن بدون منفعة حيث لم نرَ سوى اطيار العقعق طائرة من شجرة الى الاخرى و بعضاً من السنجاب الرمادي قافزا من غصن الى اخر

ثم رفع آلونا كتفيه مشيرا الينا ان نختبي بين الاعشاب واخذ حصانه وقاده بكل خفة واعتناء بين الاشجار الجمة وربطه في موضع منخفض ليبقى مختفياً عن البصر وحينئذٍ تعرّى من سترته وقبعته وصدريته وسار الى الجهة التالية لمفاجئة ذلك الحيوان الذي يترصده ونحن لبثنا

جامدين لا نتحرك واعيننا شاخصة الى البقعة التي نبهنا للالتفات اليها وهي ارض جبل مغطاة بالكلا الطويل والشجيرات تشبه غابة صغيرة قد وجدت منذ عشر سنوات

وكان آلونا قد اختفى بين الحشيش بعيداً نحو عشرين خطوة ونحن تبعنا بالنظر الطريق الذي سار فيه ومع ذلك لم نسمع حركة ولم نلاحظ اهتزاز رؤوس الاعشاب لانه زحف بخفة كحية او ابن آوى . ثم شاهدنا بغتة غصناً يابساً مرتفعاً في وسط الغابة وظهر ايضاً بعيداً قليلا شيء كغصن نذر اخيرا بدا الاثنان معاً واذا هما قرنا آيل والمسافة التي بين قرنيه كانت تقارب المتر والنصف حينئذٍ تأكدنا ان الحيوان عظيم الجثة كبير الحجم وقد رفع رأسه قليلا حينما شعر بحركة خفيفة من نسمة الهواء اللطيفة التي مرّت فوق راسنا وانتبه بدون شك الى دنوّ الخطر

اما نحن فانطرحنا على الارض بين الحشيش والآيل نهض قليلا فلم نلمح الا راسه مع ذلك لم يرانا بل احس بوجودنا وقد طوّل مناخيره الجامدة الى ناحيتنا وفتح اذنيه مصغياً الى الحركة الصغيرة . وفي الحال سمعنا طلقة بندقية جعلت الحيوان ان يثب على اربعة اقدام و يقع ثانية الى الارض

فركضنا اليه وكانت المسافة تبلغ الستمائة خطوة وصعوبة تلك الارض عوقتنا عن ان ندركه حالا و بعد هنيهة بلغنا الى حيث رايناه بين الحشيش ولقيناه منطرحاً على الخضيض والرصاصة واقعة بجانبه على ورقة موز ولما فتشنا جهة الجرح وجدنا الثقب صغيراً لا يكاد يرى لان الرصاصة قد ولجت الكتف الايسر وخرجت بعد ما مرّت في قلب الحيوان

وكانت تلك المرة الاولى التي شاهدنا فيها أيلا عن قرب وما كان يشبع

تيليه من النظر اليه وانا كذلك واما قدّهُ فكان كالحصان الصغير حجما واشتغل آلونا بالحيوان كرجل يتعاطى مهنته الاعتيادية

وكان الوقت وقتئذٍ وقت مساء نحو الساعة الخامسة ووجدنا الموضع موافقاً لتمضية الليل وعن بعد عشر خطوات تقريباً سمعنا خرير ساقية صغيرة منحدرة من الجبل . فاسرعت انا واتيت بالحصان الينا

قد كابدنا تعباً جزيلاً في سحبنا الأيل الى قرب شاطئ الساقية حيث علقناه من احدى قوائمه بغصن شجرة سنديان جميلة متكاثفة الاوراق والارض كانت رطبة جداً من ظلها الجميل

ثم اشتغل آلونا بعمل الارانب والسنجاب والحجل كما فعل بالايل وقد حفظنا ما اصطدناه اولا لعشائنا واغذيتنا واما الطريدة الاخيرة فخبأناها للبيع لنحصل بها جانباً من الدراهم

وفي الوقت عينه نصبت الخيمة وأُضرمت النار وابتدأ الطبخ وكل هذه الاشغال تعلقت بآلونا وحده وقد اخذنا كبدة الايل وبعد ما قليناها بقليل من دهن الخنزير وضعنا فوقها كاساً من الخمر وقيطات من العرق اكلناها بقابلية شهية حسنة

وبما ان خبزنا كان طرياً بعد فوجدنا غذاءنا لذيذاً شهياً وعلى الاخص لقيناء فاق جودة عن اللوبية والكعك المعجّن الذي كنا نقتات به في المعادن

وبعد ما انتهينا عزمنا آلونا للذهاب الى النوم وسأل من منا يشاء ان يستيقظ نحو نصف الليل ويتوجه معه للمرصاد حيث وجب ان يبقى واحد في حراسة الخيمة لئلا تاتي بنات آوى وتاكل حصة صيدنا

فمن خوفنا من المعاناة رفضنا كلانا البقاء في الخيمة لان الصيد قد

اعيي راسنا لكن بعد الخصام والجدال سحبنا بالقرعة وكنت انا الرابح وخضع تيليه للاقامة والمحافظة

حينئذٍ التففنا بالاغطية ورقدنا لكن تلك الراحة لم تطل وما اسدل الليل اجنحته الا ودوى نباح بنات آوى فاستيقظنا . وقد كنا سمعنا تلك الانعام مرارًا في رحلاتنا انما جماعة الموسيقى لم تكن عديدة لان رائحة اللحم جذبتهم الينا ومن ثم اتضح لنا جليًا ما قاله آلونا بخصوص المحافظة على الطريدة

وتوجهنا عند منتصف الليل متسلقين الجبل على بطننا . فسألت آلونا مستفهما عن ذلك الصيد الذي باشرنا به واجابني قائلا ان الايل المذبوح على شاطي الساقية يجذب بقية ارفاقه و يعرضنا للخطر ومن الاحسن التوجه لملاقاتها قبل الساعة الثانية صباحًا . فلما تحقق صدق قوله بل قلت لنرصد على شواطي الساقية بدون ان نجتاز مسافة

اما آلونا فدلني على مغارة صغيرة في صخرة وصعد مسافة مائة خطوة الى ما فوق . فربضت في مكاني وجعلت اتفحص انبوب البندقية وهيأتها ثم جثمت منتظرًا

﴿ الفصل الثاني عشر ﴾

(الليلة الاولى من ليالي الصيد في المروج)

قد استطاع الصيادون ان يلحظوا شيئاً خصوصياً بالمرصاد وهو ان الانسان المتولي راحة الليل العمومية الطبيعية ما من احد او مانع ينهيه عن الشغل او يهدي حركاته كالظلام الحالك ومع ذلك يقدر ان يحرم نفسه منها ما لم تصر الحياة غير طبيعية ولا مريئة كالعادة وليس من بقية المخلوقات الاَّ البعض القليل من الحيوانات التي لا تلتذ بالمعيشة الاَّ ليلاً لان نور النهار يبهرها ويحرمها من الجولان في الارض بلذة وهناء من ثم تستمر مضطربة وخائفة من اشراك الصيادين الكامنين لمرصادها ونذكر منها الخفاش الذي لا يحسن ان يطير نهاراً

اما انواع الحيوانات فمنها الذئب والثعلب وماشاكلهما من الجوارح الصغيرة التي لا تأمن على نفسها بالخروج نهاراً بل تظهر ليلاً بخفي واعتناء ملاحظة جيدا لئلا يدركها فخ المرصاد وكلٌ منها يقلقهُ الخوف سوى ابن آوى الذي لا يكفّ عن النباح المتواصل كأنهُ مستكنٌ رابضٌ بكل طمأنينة ولا يخاف على نفسهِ شراً اوضراً

ان الانسان القاطن المدن لا يستطع ان يميز لغة الحيوانات البرّية او يعرف صوت النوع الواحد من الآخر واما الصياد فيفرق اجناسها المختلفة حينما يطرق اذنيهِ نباحها المتعدّد وبهذا يدافع عن نفسه اخطاراً جمّة

وقد بقيتُ وحدي في ذلك الكهف وانا اكابد عذاب العزلة مع انني

كنت عالمًا بقرب تيليه في الحية وآلونا الذي لم ينجى عني الا مسافة صغيرة واذ ذاك تسلطت عليَّ الكآبة والارتباك في الانفراد لان (الانسان) طالما يكون متكلا على ارفاقه يستمرُّ محتاجًا لمساعدة البشر والبشر لمعونته ويخال له ان عيني صديقهِ تعضدهُ كعينيهِ الخاصة وكذلك بقية اعضائه كالايدي والارجل الخ وايضًا فالطبيعة لا تظهر لدى الانسان مهيبة او مهولة او خصمية الا حينما يكون مستقلاً بادراكه الفريد الوحيد وحواسهِ الخصوصية واذ يستلم الاخطار ويجاهد ويحارب بقوتهِ وحينئذٍ تباد وتضمحل الثقة المتأمل بها ويتناقص افتخارهُ ويصير حاسدًا فهم الحيوانات المدافعة عن نفسها بدون مناداة واستغاثة بني جنسها وينبغي متمنيًا الحصول على اذنٍ كالارنب ليسمع بها او اعين الفهد ليرى جيدًا او الخفة السريعة يجري هاربًا مدة الاخطار المحيطة بهِ

وبما ان الانسان هو حيوان اصلي ومثقف بالعلوم فيستطع اكتساب هذه الصفات باوفر سرعة وللدرجة التي يرغبها وقد اتصلت بقيادة وارشاد آلونا بعد خمسة عشر يومًا قضيتها بالمروج الى معرفة وتمييز حركة الحية حينما تسلّ بين الاعشاب والسنجاب الذي يقفز من غصنٍ الى آخر والتيس الذي يفرز الصخور الصغيرة باطراف قوائمهِ لما ياتي ليشرب من الغدير

من ثم لم اشعر باضطراب الا في الليلة الاولى اذ زعمتُ كما في السير انيفادا ان اعين الذئب النارية تتلصص عليَّ او ان دبًا مفترسًا يشاء الهجوم عليَّ . مع ذلك لم يوجد اثرٌ لكل هذه المخاوف وعلى الاخص انواع الذئب والدب التي لم تدنو الى تلك البقعة الا نادرًا ولا تدخلها صيفًا البتة

فما كنت اسمع من حولي الا الغوغاء والضوضاء العظيمة ولكن لم ارَ احداً بل اشخص لديَّ قفز ووثب حيوانات مبتعدة مني نحو عشرين خطوة وما سبب ذلك سوى الخوف والرعبة والاضطراب

وفي اثناء ذلك السكوت سمعت بغتةً اطلاق بندقية آلونا تدوي في الفضاء كرعدٍ ولمحتُ خيال حصانٍ يركض على شاطئ الغدير الثاني وبانَ لي حيوانٌ عظيم بهذا المقدار حتى صوبتهُ في الحال بطلقةٍ من بارودتي وعدتُ فلبثتُ شاخصاً مرتعشاً من اطلاق البندقية التي في يدي

لكنني سمعت حالاً صفيراً لطيفاً فعرفت ان آلونا ينادبني الاجتماع بهِ . حينئذٍ تشجعت وصعدت شاطئ الغدير بسرعة والتفت بآلونا ورايته مشتغلاً بانثي الايل الذي قتله قبلاً وقد اصابها في موضع واحدٍ فماتت حالاً ولم تحتمل طويلاً نظيرهُ

ثم سالني آلونا عن سبب اطلاق بارودتي فقصصت له عن ذلك الخيال الجسيم الذي ظهر لي .

حينئذٍ لم يعد لنا امل بصيدنا في تلك الليلة لان طلقتي البندقية قد دوّتا في المرج وحرصتا الحيوانات بالخروج من مربضها . اخيراً صنعنا كرسياً من الاغصان ووضعنا غنيمتنا عليه وسحبناها لقرب الخيمة مع جلدها الجيد لعمل السرج

فوجدنا تيليه واقفاً لانتظارنا وقد اخبرنا انه لم يذق الرقاد ثانيةً بل اشتغل بطرد بنات آوى الحائمة حول الآيل والتي يظهر انها اجتمعت معاً من كل نواحي المرج لاختطاف صيدنا وقد تنحى بعضها قليلاً عن الخيمة اي حيث كنا قطعنا الفريسة ووضعنا الامعاء من ثم فهمنا من النباح ان هذه الاخيرة قد سرت بنصيبها واستهزأت بالبقية الحائرة جوعاً المنتظرة عبثاً .

قد استوفى صيدنا ما يكفي للذهاب الى سان فرنسيسكو - حيث بلغ ما عندنا للبيع حملاً ثقيلاً وهو الآبل والنشادر مع اربعة ارانب وسنجابين وحملين من ثم تهيأ تيليه للسفر وعزمت ان ارافقه راساً الى سان فرنسيسكو لاحضار الدراهم ثمن طريدتنا

اما آلونا فبقي لاجل حراسة الخيمة وقد اوصيناه ان يجتهد مدة غيابنا ويصطاد بعضاً من الايائل والتيوس ثم حملنا بعنف على ظهر الحصان الابل والنشادر واضفنا البقية حولها لتزيينها وبما ان النهار اوشك ان يبزغ نوره فاسرعنا في المسير لجهة خليج سان فرنسيسكو حيث استطعنا الوصول الى المدينة نحو الساعة الرابعة بدون تضييع الوقت الثمين

ان رجوعنا الى المدينة كان سهلا جداً وشغلنا موفقاً حسناً وحينما سرنا في الطريق لقينا ان اثارا قدامنا لم تزل مرسومة في المرج

وقبل الرحيل اوصيت آلونا ان يتوجه ويرى الموضع الذي اطلقت به بارودتي لعله يجد أثر دم لان الرعبة التي شملتني وقتئذٍ جعلتني ان اتاكد اصابة حيوان ما

قد كان ذلك الصباح نديًا بهجًا فلم نجد نشاطاً وسروراً مثله لان حياة الصياد ترى بنفسها شهامة وحبوراً كالحرية التامة ونحو الساعة الخامسة من الصباح المذكور جلسنا لتناول الترويقة فاخذنا رغيفاً مجوّفاً من الثلب ووضعنا به كبدة الابل وقرعاً مملوءاً من الماء والعرق واكلنا بقابلية جيدة حتى حسبنا ان ذلك الطعام يستحق ان يحصى بين ولائم الملوك

وبينما كنا نفطر تحت ظل شجرة سنديان خضراء وحصاننا ياكل باشتهاء من الاغصان الطرية الشهية نظرنا نحو اثنى عشر نسراً بالمخاصمة والصياح وازداد العدد الى ان بلغ العشرين وبان لنا من الطيران انها تتبع في

المرج مسير انسان او حيوان يتوقف احياناً . اما الطيور فكانت ترتفع تارة وتنخفض اخرى ثم يرفرف البعض على الارض و يطير بسرعة وجزع

حينئذٍ اتضح لدينا وجود حادثة غير اعتيادية تبعد منا نحو ربع فرسخ من ثم حملت بندقيتي وسرت الى جهة الشرق خوفاً من ان اضل عن الطريق ومشيت بين اشجار السنديان ولما وصلت الى شجرة الصنوبر المرتفعة كقبة عظيمة دخلت المرج ولم اجزع من احدٍ لان النسور قادتني الى المحل المقصود

ثم كثرت الضوضاء متزايدة لان الطيور كانت تقدم من كل جهات الافق مسرعة جداً ومظهرة اهمية الشيء وغرابته اخيراً تسقط منحدرة في ذلك الهيجان العمومي لمشاهدة ما حدث او سيحدث ولما تجتمع النسور معاً تكف عن الرفرفة وتبتدي بالزيفان فعند تلك الحالة عزمت الوثوب عاجلاً الى النسور التي لبثت في محل اقامتها لا تبدي حراكاً بل تصرخ اصواتاً مؤثرة محزنة ولم تكن المسافة بيني و بينها الا مائة خطوة فقط

ان تلك البقعة واقعة في كثافة المرج واوشكت ان اضل عن المسير في وسط ذلك العشب الذي كاد ان يمسّ راسي لولا جماعة النسور الطائرة فوقي والمتجهة لما قصدت البلوغ اليه

ثم ابصرت تيليه من الجهة المقابلة وقد صعد الى اعلى شجرة ليكلمني فلم استطع ان افهمه ولم اميز الحركات والاشارات التي همسني بها وذلك لبعد المسافة لكن عرفت انه كان يرى جيداً المشهد و يده دلتني الى البقعة المذكورة

وفيما انه لم يعد لي سوى اجتياز خمسين خطوة قصدت تتميم طريقي وانا مسلح بالبندقية ومستعد لاطلاق النار عند اول خطر او حادثة افاجئها

وما تقدمت ايضاً مقدار عشرين خطوة سمعت تنهداً وانيناً وحركة مصارعة مضطربة مأيوسة جعلت النسور ان تطير وتلتفت وتقع صارخة صراخاً هائلاً . ففي الحال بدا لي ان لصاً خطف بغتةً فريسة تلك الطيور

عند سماعي تلك الزفرات المتصاعدة ضاعفت قوايـ وصرت اتقدم بسرعة كلية لكن لم ابتعد عن ارفاقي المدافعة معي الا مسافة بضعة خطوات ولما اقتربت زحفت كالافعى ووصلت الى حافة العشب وفي اول لحظة وقع بصري على حيوان كنت اجهل معرفة جنسه ورايته منطرحاً بعيداً نحو عشرة خطوات وهو يخفق مقشعراً لان المنازعة قد داهمته

ثم لمحت عن بعد راس رجل مع طرف بارودته وكانت عيناه شاخصة لناحيتي وهو ينتظر ظهوريـ لاطلاق النار وبلحظة اخرى شاهدت البارودة وراس الرجل مع عينيه النار يتبين

— فصرخت قائلا إه يا عم يا آلونا ماذا تفعل احترس فها انا ذا

— اجاب آلونا وقد اخفض بندقيته انني لم اذعن بوجودك ههنا الان لكن لا باس اسرع لمساعدتي واطلق بارودتك اولا على هذه الصخاب التي تزعق فوق راسي ولم تتركني مطمئناً دقيقة واحدة . واشار لي بيده الى النسور الهائجة في الافق . فاطلقت بندقيتي على الفور فاصابت نسراً مدوخاً وارتفعت البقية في الجو ولبثت تراقبنا

حينئذٍ سالت آلونا عن شرح كيفية مصادفتنا مع ذلك كان الامر بسيطاً جداً . قد سبق وقلت انني انذرت آلونا ليذهب مفتشاً عند بزوغ النهار ويرى الموضع حيث اطلقت غدارتي وهكذا حصل وحسب زعمي قد وجد حيوانا مجروحاً وتاكد الحقيقة بوجود آثار الدم السائل على الحضيض الذي تبعه آلونا وبدون ان يشاهد ذلك الوحش قدر ان

يكتشف جرحهُ في ناحيتين اي في فخذه و رقبته

ونظراً لمعرفته ومهارته بالصيد تحقق ان الضربة اصابت الرقبة لان الحيوان قد تمرغ بالاغصان العالية مسافة ستة اقدام و بقي الدم ملطخاً عليها

قد شاهد آلونا المسافة المرملة التي اجتازها الضب لكن لم يرَ على الرمل اثار الثلاثة قوائم واما الرابعة فكانت رشّت الطريق خطاً مستقيماً من الدم فعلم صاحبنا ان الحيوان قد اصيب في فخذه من ثم قد ظنه ابتعد مسافة طويلة وشرع يعدو لمطاردته وطلبه

ولما اجتاز فرسخاً واحداً وجد عشباً مداساً مخضباً بالدم لان الحيوان قد اشتد ضنكه من الجروح وتوقف برهةً وحينما شعر بقدوم آلونا نهض ثانياً وجدّ في مسيره

ان النسور قد اعتادت اذا رأت حيواناً مجروحاً في مرج تبادر مسرعة لتقتات منهُ وهذا سبب الرفرفة والضوضاء التي لم اعلم سرائرها نظير آلونا بل قادت خطواتي لقربهِ . اما الطيور فلما رأت ضعف الحيوان وعدم استطاعته على الوقوف ابتدات تاكل منه مع انهُ لم يزل حياً لكنها تشتتت وهاجت اذ وصل آلونا لقرب الضب وقطع له عرقوبه عوضاً من ان يرميه بطلقةٍ من البارود

هذه كانت نتيجة تلك الغوغاء والانين والزفرات التي سمعتها قبلاً بدون معرفة سببها

من ثم قد ازداد صيدنا بهذه القطعة الاخيرة التي تساوي وزن البقية كلها والغنيمة بكمالها

الفصل الثالث عشر

(في عشبة الحية)

وفيما نحن مرتبكون بما يجب علينا عمله بصيدنا الجديد لان حصاننا المسكين قد حمل ما زاد عن طاقته اذ وافانا عتال مع عجلة مقبلة من سانتا روزا قاصدة سونوما فاستوينا معه بالاجرة بقيمة ثلاث فرنكات لاجل وضع فريستنا في عربته ومساعدتنا في نقلها . ثم وجب عليه برجوعه مساء الى سونوما ان يصحب حصاننا و يرجعه الى آلونا المنتظر في الصيد

اما انا وتيليه فتبعنا طريقنا ونحو الساعة الواحدة من بعد الظهر كنا في سونوما حيث وجدنا قاربنا لم يزل مربوطاً على الشاطئ و بمساعدة بعض النوتية استطعنا ايصال الصيد اليه

قد كانت الريح عاصفة من جهة الشمال شرقي مع ذلك كان الجو رائقاً والماء نقياً صافياً سهلاً كالزلال من حيث ان اجتياز الخليج ظهر هادئاً مسلوكاً حينئذٍ انزلنا القلع و بعد مسير ثلاث ساعات وصلنا الى سان فرنسيسكو

وكان وقتئذٍ الساعة الرابعة بعد الظهر فاسرعت الى المجزرة الكبرى و بقي تيليه محافظاً على الصيد المغطى بالاعشاب واوراق الشجر . قد كان صاحب تلك المجزرة رجلاً اميركانياً فتوجهت اليه واخبرته عن سبب مجيئي وعن الحمل الذي معنا للبيع

ان الايل كان يساوي ثمنه في مدينة سان فرنسيسكو اربعمائة فرنك

والتيس من المائة وخمسين الى المائتين والارنب الى الثلاثين والحجل الى الست فرنكات والسنجاب الى الثلاثة

واما طريدتنا الاخيرة فلم يعدّل ثمنها وقد ظننت انها كانت المدة الاولى التي اخذ من نوعها الى سان فرنسيسكو بالنتيجة قد بلغ ما قبضناهُ لوزن خمسة عشر مئة ليبرة من اللحم نحو الفًا وخمسمائة فرنكاً

ثم رجعنا في العشية ذاتها وقذفنا بسرعة الى ان وصلنا الى سونوما الساعة الواحدة صباحًا فرقدنا في قاربنا الى الساعة الخامسة

وعند انتباهنا من النوم بادرنا بالمسير لنجتمع بآلونا وفي الخطرة المذكورة نزلنا قليلا لجهة الشمال وتبعنا المنحدر الغربي من تل صغير لان الحشيش لم يكن مرتفعًا كالمرج فسلكناه لاجل سهولة صيدنا . وقد صادفنا ثمانية من التيوس البرية لكننا لم نقتل منها سوى اثنين فقط

واجتهدنا ملاحظين باعتناء عملية التجويف التي يصنعها آلونا بعد القتل لانها تأتي بفائدة في امكنة الحر نظير بلاد كاليفورنيا وغيرها ثم اخترنا سنديانتين كثيفتي الاغصان لحفظ التيسين بالرطوبة ومددناهما على اغصان مرتفعة خوفًا من ان تصل بنات آوى اليهما

وعند الساعة الحادية عشرة وصلنا الى المرحلة محل اقامتنا حيث ابصرنا تيسًا وابلاً معلقين على اغصان سنديانة فعلمنا ان آلونا ايضًا لم يضيع وقته سدى . وبما ان الحركان شديدًا ظننّا ان صاحبنا راقدٌ وباقترابنا اليه لقيناه حقيقة غارقًا بنوم عميق

انما وجدنا في سترته حية من ذات الاجراس قد اتت لتتدفأ في حرارة الصوف وليونته والتفت ورقدت معه . فاضطربنا جدًا من اجله وجزعنا على حياته

وكان آلونا راقدًا على الجنب الايمن فلو فرضنا انه انقلب على الجانب الايسر حيث الحية نائمة فتصاب بألم شديد وتلدغه لا محالة . حينئذٍ لبثت مع تيليه واقفين عند مدخل الخيمة واعيننا شاخصة مبهورة من رؤية الحيوان السام المميت ولانعلم ماذا وجب علينا عمله لان آلونا ينهض لاول حركة نبديها وتلك النهضة تكون الموت . اخيرًا قصدنا ايقاظ آلونا من النوم لنعتقه من رفيقته المؤذية المخيفة التي ظهرت انها نائمة نظيره واحسن

قد سبق القول ان آلونا كان نائمًا على الجنب الايمن وملتفًا بردائه واما ذلك الحيوان الخبيث فقد انسل ودخل بين ثيابه وبقي الذنب مع القسم الادنى من جسمه مختفيًا في طي الرداء والجزء الاعلى التفّ ببعضه حتى صار كالحبل الضخم وكان الراس داخلا تحت رقبة النائم

عندئذٍ رسم تيليه دائرةً وحوّل بصره لجهة راس آلونا ثم ادخل حديدة بارودته في ذلك الانعطاف الذي عوجته الزحافة واستعدّ ان يطرحها بعيدًا بحركة سريعة . وفي تلك الدقيقة ذاتها سحبت السكين التي معي للصيد لانني تعودت ان احملها دائمًا في حزامي وعزمت على قطع الحية جزئين . وقد اشرت الى تيليه انني بانتظاره اما هو فاخرج الطلقة حالاً بعزم قوي حتى دُفعت الافعى فوق فماش الخيمة فلما نظرت ما جرى لم اتجرأ ان افعل شيئًا بالسكين التي وقعت على الارض من يدي . وافر معترفًا ان الدم قد جمد في عروقي عند ما شاهدت الحية منتصبة وهي تشب وتنفخ وتلك العين الكدرة تلتهب وتسطع كالبرمان وذلك الحنك الادكن ينفتح بغلاظة مفرطة

اما آلونا فقد استيقظ من وهلة نومه لكنه لم يفهم اولاً ما تعني البندقية

التي في يد تيليه والسكين التي في يدي لكن مشهد الحية قد بين له الجميع ثم نهض وقال

— آه منك يا زحافة الارض ولكن بكل احتقار وازدراء ومد ذراعه الطويلة ومسك الحية من الذنب وبرمها مرتين او ثلاثة وهي تنفخ ثم طرحها كما يرمي راشق المقلاع مقلاعه وحطم رأسها في وتد الخيمة . اخيرا رماها بعيدا عن الخيمة مسافة عشرين خطوة وخرج متمشياً لقرب الساقية وغسل يديه ومسحهما بورق السنديان وعاد يتحدث معنا فائلاً

— طيب وهل كان البيع موفقاً حسناً ؟

اما تيليه وانا فكنا بلون الاموات من شدة الخوف والاضطراب ثم قدّم له تيليه كيس الدراهم وبدأ آلونا يعدها وقسمها الى ثلاثة اجزاء متساوية وبدلائل الانشراح المتلالئة على وجهه اخذ الجزء الواحد ووضعه في كيس من جلد قد علقه في زناره

ومذ الحادثة المذكورة كان آلونا مكرماً عظيما عندنا لما راينا من شهامته وبسالته . لكن لا يجب على القاريء ان يتعجب لان سبب تلك الشجاعة هي العادة ومن الممكن ان خوفه كان شديداً في اول حياته نظيرنا ومنظر الحية ذات الاجراس قد ارعبه في المرة الاولى كما جرى بنا ولكن العادة اتت وهي تألف الجميع ولا يرعبها احدٌ ولا الموت حقيقةً وجب ان يكون ممارساً على اقتحام الاخطار ففي سفراته نحو الشرق وفي اواسط تلك البلاد المجهولة والمهجورة لحد الان قد تكبد مشقات عظيمة في مروره بين الطريقين المسلوكين بالقوافل وحيث يبتدي الطريق الواحد من بحيرة البيراميد الى سان لويس ميسّوري والاخر من مونتري الى سانتا فه

وقد تعوّد آلونا على الاضناك والمشقات في تلك البقعة الواسعة التي لا تعرف اصول انهارها لكثرة الرمال والمنافع والغدران المختلطة بالملح والمظلية بالقار صنيع البشر المتوحشين الساكنين تلك الامكنة مع الوحوش المفترسة جميعاً

اما الحية ذات الاجراس فها كيفية مباشرة معرفة آلونا بجنسها وضررها. مساء ما بينما كان آلونا راجعاً من عند الهنود نافاجواس على الشط الايسر من ريو كولورادو حيث قاد اليهم مرسلين ورجلاً انكليزياً وفي عودته ضلّ عن الطريق وخوفاً من اتباع السكة المطروقة الخطرة بادر بالمراكضة على ظهر حصانه ودخل المرج ولما بلغ حافة ساقية وجد ان الموضع يصلح لتمضية الليل ففك لجام حصانه وبسط جلداً على الارض واحضر عدته كمدبرة بيت حاذقة ليطبخ قطعة من لحم ظبي.

ولكي يجعل الوحوش الضارية تهرب منه ليلا اوقد نارا عظيمة بعد ما اعتنى بقلع الاعشاب المجاورة للموقد لكيلا تتصل النار بالمرج ثم وضع قطعة اللحم على اللهيب وخوفاً من ان ينقصوا الحطب في الليل قصد آلونا ان يقص اغصاناً من السنديانة العظيمة المرتفعة على الحافة الاخرى من الساقية ثم فتح سكينة ووثب قافزا على الشاطئ الآخر. لكنه احس ان رجله وقعت على شيء حي وزلقت فوقع آلونا مستلقياً على ظهره ونظر حالا راس حية من ذات الاجراس تشبُّ منتصبة وشعر حينئذٍ بالم شديد في ركبته اعلمهُ بلدغ الافعى. فامتلأ غيظاً وحنقاً ونهض جالساً واخرج سكينهُ وقطع الحية اربا اربا. لكن ما المنفعة فانهُ اصيب بالضرر وحسبما ظهر لهُ ان الجرح كان مميتاً

فيا ليت الحطب لم يكن ولا اطالة اضرام النار لان آلونا اوشك ان

يشرف على الموت قبل ان يخمد سعير ناره

ثم رجع كئيباً منقبضاً متكدراً وطفق يصلي الصلوات الاخيرة ظاناً ان اجلهُ قد دنا وعاد فجلس ثانياً بقرب النار لانهُ شعر بانفعال وانزعاج وكجليد يسري في كل جسمه . وتهيأ لساعته الاخيرة واما رجله الممتدة اليابسة كالمائته فكانت تورم وتزرق وفيما هو على هذه الحالة اذا به قد تذكر بغتةً — ان آلونا تيقن ان الفكر لم ياتيه الا كنعمة واجابة لتضرعاته — قد قلت تذكر لانهُ لمح بين الكلاء المحيط بوقده عشبةً تسمى عند الهنود عشبة الحية

حينئذ شدَّد قواه وجمع عزائمه وانجر زاحفاً لقرب الموضع الذي خيل له رؤية تلك العشبة و وجد منها حقيقةً ثلاثة عروق كان قلعها بجذورها . وفيما هو يقلع اغراساً غيرها ليغليها في طاس من فضة كان قدمهُ الانكابيزي جائزة على معروفه بارشاده الى الطريق اخذ آلونا يمضغ عرقاً من العشبة و بادر بسرعة وغسل سكينه اللزجة الملطخة بالدم و بما انه كان سمع مراراً عن كيفية استعمالها اخذ النبتة الممضوغة وداوى به جرحه المرة الاولى

وفي اثناء ذلك وضع العرق الآخر على النار واستخرج منه شراباً خضراً اغمق اللون وفاحت منه رائحه قوية كالفلى ومع ان الشراب المذكور غليظٌ جداً احتمل آلونا مرارته واضاف اليه ماء و رغما عن استمراره ابتلع الجميع

وكان قد حان الوقت النحس فبالكاد كان صديقنا معالجاً بالشراب الا واخذته الدوخة الشديدة وشعر بانقلاب الارض به واسود لون الافق في عينيه و بدأ يدور فوق راسه وتشخص له القمر المشرق كرأس مذبوح عظيم والدم يسيل منه . فانَّ متنهداً طويلاً حتى ظنَّ انها الاخيرة

ووقع منطرحاً لا يبدي حركة على الجلد المتكئ عليه

في الغد عند طلوع الفجر تقدم حصان آلونا لقربه وهو لا يعلم سبب عاقة سيده في النوم فدنا منه ولحس وجهه فاستيقظ آلونا وهو لم يتذكر شيئاً من ما جرى له بل شعر بخدر عمومي و بالم شديد وعياء مفرط وكان قسماً منه قد مات وعلى الاخص كانت رجلاه اليابستين

فتذكر وقتئذٍ ما اصابه . ثم سحب رجله المريضة لقربه ولكن بوجع مؤلم وكشف الجرح واقام لبخة الجذور التي لفها بمنديله . اما رجله فكانت منتفخة ولونها احمر قان

واذ ذاك عاد فجدد ما صنعه العشية ومضغ ثانياً من العشبة الشافية وهذه المرة ايضاً ابتلع الزوم كله رغما عن الرائحة والطعمة التربنتينية وغيرّ اللبخة القديمة . وبما ان قواه كانت خائرة ولم يملك عزماً ليذهب في ناحية مظللة من الشمس زحف تحت الجلد النائم عليه وتغطى به

و بقي على تلك الحالة الى الساعة الثانية من بعد الظهر وقد كلله العرق ففاجأه فكر ان يذهب الى الساقية لغسل رجله ولا رواء غليله بالماء البارد

حينئذٍ احسّ آلونا بتخفيف المصاب نوعاً انما راسه بقي ثقيلا ونبضه يدق كأن حمىً محرقة مؤذية قد داهمته مع ذلك تجلدّ صبراً ودعى حصانه فلباه اذ عرف صوته فوضع السرج على ظهره ولفّ الجلد كخرج واخذ مؤنة من عشبة الحية وامتطى جواده بصعوبة عظيمة ووجع شديد واتجه الى قرية تبعد مسافة خمس ساعات

و بوصوله الى تلك القبيلة اعزّها جداً وانتخب اصدقاء كانوا استقبلوه بمحبة ولطف وانس وترحاب ومن اخصهم بالذكر احد الشيوخ البرابرة الذي تقلد امر خدمته والاعتناء به الى ان شفي تماماً

ومن تلك الحادثة كان آلونا يعد لدغ الحية ذات الاجراس كمصيبة عظيمة وكان يحمل معه دائما في كيس جلد صغير كمية من العشبة المذكورة حرصاً من التعرض للخطر وهو يهب منها الى جميع ارفاقه ومعارفه

﴿ الفصل الرابع عشر ﴾

(آلونا)

ان آلونا كان يهز راسه بحركة مشابهة للسويداء و يقول :

— حينما كنت مجنونًا

اما نحن فلم نفهم معنى جنونه وفي سهرنا سوية مدة تلك الليالي قدرنا ان نتلخص النجوى من حديثه ان آلونا كان عنده امراة احبها حباً شديداً ثم ماتت فحزن لفقدها حتى عظم الكدر ادخله في باب الجنون . لكننا لم نتحقق القصة بتمامها لانه لم يكلمنا عن هذا الموضوع رسمياً بل انا خلت ذلك على سبيل الظن والتخمين

ان آلونا كان قاطناً في الزمن الذي جنّ به (حسب قوله) بقرب جبال نهير **الفان** على شواطي نهر اركانساس وقد اعتنى ببناء بيت و بعد ما بدأ بتشييده بجد وهمة تقاعد عن همته ولما يا ترى هجر بناءه بعد تتمة القسم المعتمد عليه واغلقه بدرفات شبابيك مهملة فقط ولم يقفل بابه الا بزلاج بسيط ؟ اليس ما قاله اكيداً فان آلونا لم تطب له الحياة في الوحدة والانفراد بعد ما عال نفسه وتوعدها بالهناء ورخاء العيش ومذ

ذاك الوقت لم يعد يهتم بفتح الباب وقفلهُ لان كنزهُ الوحيد المتكل عليه قد اختفى عن ابصارهُ وغاب بدرهُ الى حيث لا يرجع اصلاً

ففي احدى الليالي عاد آلونا الى منزله بعد ما تغيب طويلاً ووجد الباب مفتوحاً واكتشف بان كومة الذرة العظيمة قد تناقصت وكان قد جمع منها كثيرًا حتى املأ زوايا الكوخ الى سقفه مع ذلك لم يبالِ بالسرقة منها فكم وكم كان وهبَ جيرانهُ الذين يأتون ويطلبون منهُ انما من طبائع آلونا الاشمئزاز اذا تجرَّا احدٌ على لمس امتعته بدون تنبيه او اعلام وزد على ذلك فقد نظر في السرقة ليس فقط ارتكاب الجريمة بل نوع الاحتقار الذي ابداهُ اللص حينما بادر بالاختلاسِ

من ثم اغتاظ آلونا جدًا لما تحقق كيفية السرقة لان اللص قد ترك الباب مفتوحاً وابا بعدم مبالاته او ارتباكه ومن البرهان الواضح قد عزم ان يعود ثانيةً

فاتكأ آلونا ووضع بقربه آلة شبيهة بالفاس كان يستخدمها لقطع الاخشاب وهيأ سكينهُ المكسيكية المدلاة من حزامه وبقي متيقظا منتظرًا قدوم اللص

لكن بما ان النعس الضروري للبشر يتسلط على حواس المرء رغماً عنهُ خصوصاً بعد الاتعاب المضنكة قد استولى ايضًا على آلونا وهجم فغلبهُ بعد ما كان اقرغ قواهُ بابعاده

ثم استيقظ صاحبنا عندمنتصف الليل وسمع كومة الذرة تهبط متدحرجة بعزم وضوضاء الورق الناشف لم يكف عن القرقعة بدون ارتباكٍ ما

فبلا شك ان حاسيات ذلك اللص كانت صخرية لانهُ لم يدنو الى الفراش ويرى صاحب المنزل او بالاحرى ظنَّ آلونا لم يزل غائبًا حتى

جمع كومةً كبيرة من الذرة بسرعة كلية و بدون اضطراب او التباك وكان ذلك العمل والجسارة قبيحين جدًا لدى آلونا فصرخ مناديًا باللغة الاسبانولية — من هناك ؟ فلم يجبه احدٌ بل انقطعت الحركة

ثم نهض الونا وجلس على فراشه وعرف ان اللص قد سكت وهدئ اخيرًا اعاد سؤاله باللغة الهندية فلم يستفد جوابًا من اللغتين . فقلق جدًا من ذلك السكوت وظنّ ان اللص عزم على الخروج كالدخول سرًّا وصار يمشي خفيفًا بطيئًا كالانسان المختبئ عن اعين البشر واما انفاسه المتصاعدة فكانت تبيح وتاكد حضوره

وعلم الونا ان الخطوات متجهة نحوه عوضًا عن الفرار الى ناحية الباب فتيقن بدون شك ان اللص كان يطلب من يفاجئه وقد تقدم الى الداخل لمخدع النوم

فتهيأ الونا للمصارعة لان العراك اقترب جسمًا لجسم واخذ سكينه باليد اليسرى وفاسه باليد اليمنى وانتظر . ثم بداله حالاً ان خصمه لم يبعد منه اكثر من خطوتين ومدّ يده فصادفت جلدًا خشنًا كثير الشعر فثبت لديه ان ذلك اللص كان دبًا

وتخلف صاحبنا الى الوراء بحدةٍ وعزم لكن الحائط منعه عن التخلف الى الوراء والتزم قبول المصارعة رغمًا عنه

ان الونا لم يكن رجلاً جبانًا او محبًا التاخير الى غير ذلك وقد قال عن نفسه — منذ نشئت لم اعد مكترثًا بالاخطار الشديدة وما من شيء يبعدني عن اقتحامها بشجاعة وطيب الخاطر

حينئذٍ رفع ذراعه وطرح الفاس بعزم من العلو الى الاسفل متكلاً على العناية الالهية ليرى اصابة الصدفة وفعل السلاح . و بسعدٍ قد اصيبت

احدى قائمات الدب حيث صدعت بشق واسع جعل الحيوان ان يزمجر كرعدٍ ويمسك الونا من جنبه بقائمته الاخرى ويحبه لقربه حتى لم يستطع ان يبدي حركة سوى ان يمديدهُ من تحت رجل الدب ويضع السكين في الناحية المستحكمة

فحدث بعد ذلك ان السكين دخلت بعمقٍ في صدر الدب الذي يعنف بجذب الونا لنحوه . وفي اثناء هذا كان رجلنا الهمام مشتغلاً بضرب الوحش على انفه بقبضة فاسه الحديدية

وجرح السكين لم يؤثر بصلابة جلد الدب اولاً الى ان جذب آلونا بعزم واحسَّ بالسلاح الخارق امعاءهُ فزمجر زمجرة الالم وطرح فريسته الى الجانب . وكانت الدفعة شديدة وبالصدفة اصابت من جهة الباب حيث استطاع آلونا ان ينحي مسافة عشر خطوات كان بدونها وقع الى الحائط وتحطمت اعضاؤهُ

فبقي عارياً من الاسلحة حيث لم يقدر ان يضبط الفاس بيده وقد ترك السكين في بطن الدب . لكن لحسن التوفيق وجدَ آلونا وتداً من السنديان مشابهاً الحربة ففرح بتلك الملقية واستعدَّ ليصنع حاجزاً على الباب ليزرب الوحش الهائل في الداخل

ان آلونا بسقوطه قرب الوتد لقطهُ بيده مع انه كان دائخاً ونهض بعزم ونشاط جديدين . وذلك الوتد اذا وُجدَ بيد رجلٍ باسل شجاع نظير آلونا يدعوهُ البشر سلاحاً عظيماً مخيفاً كما كان النبود في يد هرقلس

من ثمَّ وجب الانتفاع بتلك المهلة القصيرة لان الحيوان قد غضب جداً من جرحهِ المضاعف وتبعهُ الى خارج الكوخ وهو يهدر هديراً هائلاً اما آلونا فلم يكن متمسكاً بعرى الحياة لكنهُ لم يشاء ان يموت فريسة

بين مخالب ذلك الوحش المتزائد حنقاً من ثمّ جمع كل قواهُ واستعدّ لمصارعة مميتة وامطر على الدب بردًا من ضربات الوتد التي تحطم عظام الثور . لكن الوحش قبل الضربات مفتشاً باحسن لباقة و بعزم ليمسك الوتد ويخلسه من يدي خصمه ولو لا رجلهُ المجروحة لاستطاع اخذهُ حالاً اخيرًا فاز بغرضه . ولما قبض الحيوان ذلك الوتد لم يتأخر آلونا عن التسليم وهذا جعل الدب الخاطف ان يرتدع الى الوراء بصدمة عنيفة

فاغتنم آلونا الفرصة للوثوب الى داخل منزله ودفع الباب خلفهُ بشدة اما الوحش الخبيث فلم يتركهُ حرًّا و يسلك في سبيله بل رجع على الفور الى قرب الباب بينما كان آلونا يدفعهُ بعزمٍ واستمرا كلاهما برهة على هذه الحالة وما من حاجزٍ يفصلهما عن بعضهما سوى درفة الالواح الخشبية المكسور زلاجها ثم تدحرجا سويةً بقوةٍ الى داخل البيت

وعند وقوعهما انتهز آلونا وقتهُ والقط الفاس متدرعًا بها كما جرت العادة ان يستعمل ما يراهُ نيابةً عن الاسلحة . ثم رفع الباب واختبأ و رأهُ اما الدب فمسك الخشب بين قائمتيهِ وهذا كان مرغوب صاحبنا النشيط الذي ترك الباب و بكل مهارة ولياقة جرح الوحش في رجله الثانية بطرقة فأس شديدة

ولما رأى الدب نفسه اكتنع الذراعين والسكين قد تولجت في احشائه علم وتاكد ان الدهر خادعهُ وعاكسهُ وخانهُ فالتزم ان يمكث مختليًا واما عزيزنا آلونا المتجدد الهمة والنشاط فذهب واخذ قربينته الغير مستخدمة بعد في هذه الواقعة ثم شعر انها كانت تحت ذراعه و وثب قليلاً الى الوراء وعمرها و وقف مقابلاً خارج الباب

وفي تلك الدقيقة عينها اشرق القمر بغتةً متلألئًا بين غيمتين كأنه بزغ

لمساعدة الونا لانهُ وهبهُ نوراً ليرى اين يصوب بندقيته

اما الدب فوقف متذعراً وعزم ان يخرج من البيت وتشدَّد مزمجراً كالرعد وتقدم نحو الباب الذي ترسه الونا ببارودته وتشجع الوحش كعادته راغباً المصارعة جسماً لجسم وكان الونا وقتئذٍ مترصدا الحركة فاندفع خطوة الى الوراء واطلق النار للجهة المقابلة التي بها السكين . اخيرا تخلف الدب خطوتين ووقع بثقل منقلباً على ظهره لان الرصاصة قد اجتازت قلبهُ

ان ذلك الدب الاسود الجلد كان بعظم الدب الرمادى اللون ويبلغ وزنهُ نحو ثمانمائة ليبرة . والفرق بين نوعي الدب هو ان مصارعة الرمادي تكون اكثر مخيفة ومخطرة من الذي عاركهُ الونا لان هذا النوع الاخير يستخدم في القتال اسنانهُ ومخالبه والواسطة هذه لا يعرفها الدب الاسود بل يجتهد ان يقبض على ذراع عدوهِ ويزركه لتمزيقهِ ويسحقه بشدة قوية

يجب على القاريء ان يفهم هنا ويعتبر كم ان صيدنا كان سهلا بالمناسبة لرجل معتاد على صيدِ هائل كما قصصت الان لان طريدتنا لم تكن سوى من الغزلان والايائل والتيوس

عدا عن ذلك كله ان الونا قد تكبد اخطارا جمة حتى ان ما صادفه بمعيتنا عدَّه زهيدا طفيفاً . وكان حافظاً راسخا في ذهنه ما شاهده وما جرى له حقيقة ويقص على اسماعنا حوادثا بدون جزع وكنا نراه لهفا مستعدا لاقتحامها بدون عاقة اذا بدت لدينا

لكن لم تكن كل الاخطار سهلة لديه بل يخاف واحدا منها وهو حسبما قال لنا انه يوجد على طول الريو كولورادو وفي بطاح القسم الشرقي من التكساس تهلكة تبتلع المخلوقات ومن الجملة كان فقد هنالك حصانين

اما نحن فلم نفهم اولا معنى هذه التهلكة اذا كانت من الوحوش او سواها وكان الونا يخافها جدا وحينما كلمنا بصددها ارتجف كالاولاد الصغار الذين نرعبهم بقولنا (غولا) او ما شاكل ذلك

وحسبما فهمنا منه نقول انه يوجد في شرقي التكساس بطاح و يرى على وجه الارض منظر مرج صلب مع ان ذلك ليس سوى بحيرات متجمعة من الحمأ والطين يختفي بها فارس مع حصانه بيضعة ثواني و يوجد ايضا في وسط تلك الارض المهولة طرق محاطة بالقصب يعرفها الهنود وفاطنوا البلاد فيحترسون من اخطارها ولكن باي علامة ؟ لا نعلم فهم ذواتهم يتكبدون عذابا جسيما لمعرفتها واما المسافر الغريب الذي ليس له من يرشده ليتبع تلك الحواجز الضيقة فيسير كالعادة وتبتلعه الارض بافواهها المفترسة

عدا عن هذه التهلكة يوجد اخطار عديدة . ففي الناحية الشرقية ما بين المروج يرتفع ادغال من الشوك و يبلغ علوها احيانا الحد العشرين قدما وتكون بشكل دائرة . فاذا نظر المسافر وحوّل بصره بتأنٍ الى ما خلفه الصدفة يرتجع خائفا متخلفا . والا فيدنو من تلك الاشواك و يرى الحوائم ملتفة عليها وهي الوف من الحيات والافاعي التي لا تعرف ان تقطن الا في تلك الجزائر وما بين الحسك والعليق وهذه الزحافات تدعى الحية المائية ومنها الافعى الاسمر والثعبان الاسود ذا الراس الاحمر وكل من الانواع الثلاثة يزيد سما واذى من الحية ذات الاجراس

اما ذلك المسافر المسكين فلا يعلم ما يصيبه اذ الدغته الحية وهل ينجو سالما من تلك البقعة . كلاّ . فمن الممكن ان تبتلعه من تهلكة ذلك الطين والوحوش الرابضة تحته المدعوة كلب البحر

يا له من خوف ترتعد منه الفرائص . فان الحيوان المذكور يمكث في البحيرات كما سبق القول و بالكاد يضع الحصان رجله في ذلك الغم الا و يهلك لا محالة و يظهر بعد هنيهة مخبطاً وتقدح عيناه ناراً و يقشعر عرفه وتضطرب مرتجفة مناخيره الملتهبة ولا يستطيع ان يسبح في الحماء حيث لا مناص له . ثم يأنّ بالم وذلك حينما يشعر بالقوة الغير مقاومة تجذبه الى عمق اللجة واذ ذاك يختفي رويداً رويداً وهو يصارع عدواً مختبئاً لا يرى منه احياناً سوى ذنبه المنحني وكله من الحرشف والفلوس اللامعة الساطعة في وسط الحماء . ومصارعة ذلك الوحش ومحاماته هما في ذنبه العظيم الذي يصنعه كنصف دائرة و يلتقيه عند فيه . فيا لتعاسة تلك المخلوقات التي بالصدفة او لعدم الدراية وجدت بقرب الذنب المهول لان ذلك الكريه الخبيث يضرب به فريسته مهما كانت كبيرة و يدفعها نحو فكه الواسع الذي يفتحه و يدوره من الجهة الواحدة الى الاخرى ليأخذ ما هيأه الذنب بتلك الحركة وحينئذٍ يبتلع الماغنان كل الفريسة بسرعة اشد من لمح البصر

وقد يستخرج سكان النكساس شحما من ذلك الوحش ليزيتون به دواليب مطاحنهم

ففي فصل الخريف تخرج تلك الحيوانات من البحيرات وتذهب مفتشة امكنة دافئة للسكنى بها شتاء وعند خروجها من الحماء يصطادونها . وهي تركض الى اصول الاشجار وتحفر لنفسها مغائراً وتتغطى بالتراب وتكون قوتها مخدّرة قليلا في ذلك الفصل وليس لها فاعلية مؤذية كالعادة . فتأتي العبيد للصيد و بطرقة واحدة من الفاس يفصلون الذنب عن بقية الجسم و بالكاد يستطيع الوحش ان يفيق من برده بتلك الضربة الشديدة

و بعد انتهاء العملية الاولى يقطعونه اربًا اربًا و يطرحونه في دسوت واسعة بفرن سخن ليغلي مع الماء . فيعوم الدهن على الوجه و يأتي عبدٌ ويجمعه بمغرفة كبيرة . و يكفي احيانًا شخص واحد لهذه العملية المثلثة . وهي قتل الحيوان وغلي الماء وجمع الدهن

وقد روى بعضهم انهم رأوا عبيدًا تقتل خمسة عشر وحشًا في النهار وعلى مدار السنة لم يسمع قط عن اصابة احد منها بالصيد

اما النوع الثاني سلحفاة البحر فهو وحش مختلف الشكل عن الاول لا بل اكثر مؤذيًا ومخيفًا عن الاخر فقط قد قيل ان ما من احد استطاع ان يراه حيًا لان لا منفعة له لكن وجدوا منها مائتًا عند نقصان المنافع وفي تعاريج الانهر وقد اتضح لديهم ان يصفوا شكلها فقالوا ان هيئتها كالسلحفة لكنها عظيمة الجسم ولها حدبة طولها من عشرة الى اثنى عشر قدمًا وعرضها ستة اقدام مع راس وذنب كلب البحر . وهي تختبي في الحماء وتنتظر الفريسة في موضع يشبه القمع وهي فاتحة ماضغيها دائمًا ومستعدة لابتلاع ما تقذفه لها الصدفه

ان آلونا قد نجا مرتين وهرب من هذين الوحشين الهائلين تاركًا لها حصانيه فريسة وقد اختفيا و بلعتهما الافواه الغير منظورة حيث لم يسمع لها سوى المضغ وطرطقة العظام

وقد قال ايضًا ان يومًا ما رأى بعض من الضباط المهندسين الاميركان رجلًا من ارفاقهم يفترسه الوحش الشبيه بالسلاحف (هؤلاء الضباط يقيسون المسافات التي بين المكسيك واورليان الجديدة) فقصد الضباط متحدين مع واحد من حراثين الاميركان قد نزلوا عنده مع آلونا ايضًا ان يبذلوا مجهودهم لينشلوا واحدًا من تلك الوحوش المغمورة في

اللجة ولوصها كلفهم الامر وبالنتيجة احضروا لاجل الصيد الغريب العجيب الاستعدادات التالية وهي :

قد دلوا زورقًا صغيرًا وربطوه بسلسلة يبلغ طولها من ثلاثين الى اربعين قدمًا وعلقوا في المرساة حملا لا يزيف عمره عن الخمسة عشر يومًا ورموها معًا كطعم في الحماء وبقي الطرف الاخر من السلسلة ملتفًا بجزع شجرة واقاموا عبدًا يحراسه ذلك المشهد الغريب

وفي الغد مساء بادر الحارس مسرعًا وقال ان الوحش قد ابتلع الطعم بسهولة وعض السلسلة وسبّب هزة ازمعت ان تجذب السلسلة وزعزعت الشجرة

فكان وقتئذٍ مساء مؤخرًا جدا ولم يتجرأوا التفرج في تلك العشية بل اخروا ذهابهم الى الغد صباحًا ليسحبوا الحيوان من مربضه المائي

وعند بزوغ الفجر ذهب الجميع الى المشهد ووجدوا المرساة مدلاة بعنف شديد حتى نثرت قشرة الشجرة المربوطة بها من كثرة التوتر فاضافوا الى السلسلة حبالا وحصانين

اما الحصانان فبعدما وُخزا وضربا وجعا قواهما ليسحبا الوحش لم ينتفعا شيئا بل كلما تقدما خطوة الى الامام تجذبهما قوة غير مقهورة الى الخلف . فلما رأى الجمهور ان قوة الحصانين لا تفي بالمطلوب ارسل الفلاح القاطن هنالك واتى بالثورين العظيمين اللذين في ارضه وربطوهما مع الاولين ونخسوهم جميعًا وبعد برهة اخذت القوة مفعولها وظهر على وجه المياه المضطربة فك الحيوان الضخم العظيم واما الوحش الهائل ذاته فبقي غير منظور ومن هيجان الماء واضطرابه عرفوا انه تعمّق الى الاسفل في تلك اللجة الغير متناهية والعديمة الركن والقرار

هذه هي النهلكة والاخطار التي كان يخافها جدا صديقنا الونا وقد

اضطرب وكره التنوه بهذه الحادثة التي يخالها السامع خزعبلية

وفي يوم اخر جرى لالونا نادرة جديدة في سفح الجبال الصخرية بين تلك التلال والبحيرة التي لم يعرف لها اسم بعد وهو انه التقى بجيش من الهنود الغزو الذين تتبعوه . وبما ان بندقيته كانت مكسورة ومعطلة وحصانه عيي من شدة التعب فخوفا من ان يتبعه القوم و يدركونه بخيلهم الجياد قصدان يغتنم فرصة الليل الذي سدل اجنحته حالا لينجو منهم بالحيله . وشرع يفتش موضعا بعيدا ليأوي اليه

وكانت الواسطة سهلة لديه جدا وهو انه قاد خطواته الى حرش صغير من الصنوبر ولما وصل لقرب شجرة تمسك بغصن قوي و بقي معلقا وترك الحصان يعدو من تحته ثم كابَّ رجليه في الغصن المتكشة به يدا و بلغ حالا الى وسط الشجرة والاعداء تسرع لقرب الحصان ظانين انهم يتقدمون الى الى الفارس لكن عجلتهم المضاعفة ذهبت عبثاً لان جريهم الى الامام ابعدهم عمن يطلبونه وقد احصى عددهم فبلغوا اثني عشر رجلا وسمعهم يتحدثون اما هم فلم يشاهدوه لانهم كانوا يركضون باوفر سرعة

ولما ابتعدوا قليلا ولم يعد يسمع مطاردتهم نزل الونا وصار يفتش مكانا يمضي به الليل و بعد بضعة دقائق وجد شقا بين الصخور الكثيرة المثال في اسفل الجبال الصخرية وذلك الموضع يشبه الكهف المتسع لكنه مظلم لا يولجه النور الا من الممر الذي شاهده الونا حينئذ دخله زاحفا كالحية ثم لقي حجرا كبيرا فدحرجه ليسد به الفرجة خوفا من ان يأتي اليه وحش فيفترسه او عدو فيهلكه . اخيرا التف بردائه و بعد برهة يسيرة نام لان الاتعاب قد اضنكته

نعم فانه رقد بلذة عظيمة في اول نومه لكن تلك الراحة لم تطل لانه تكبد

بعدها عذابا وتعبا شديدا ثم استيقظ وشعر بشيء يحفر ويخرمش في فخذه وكأن هرا يسن اظافيره بمكنسة . لان عدة وحوش ذات مخالب حادة رفيعة كانت تلعب وتنهش فخذيه

عندئذ هزّ الونا راسه وتاكد ان تلك الحالة ليست مناما ومد يده واحس بحيوانين صغيرين لا يزيدان عن عظم جثة الهر رابضين تحته لان رائحة اللحم الرخصة الحية قد جذبتهما فكانا يلعبان برجليه ويغرزان اظافيرهما في لحمه . فتحقق حالا خطره وعلم انه دخل مغارة يربض بها ضبع واولاده وعرف ان الاب والام غائبان وتكون عودتهما بلا عاقة وهمّ على الخروج مسرعًا لئلا يدركانه ويفترسانه

بالنتيجة حمل بارودته ورداءه واستعد ليسحب الحجر ويتخلص فارًّا بسرعة من الفخ الذي نصبه لنفسه وفيما هو على اهبة الرحيل وقد وضع يده على الحجر سمع عن بعد مئة خطوة زمجرة بشرته بتأخيره لان الام قد رجعت ثم ارعبته بهدير اخر من مسافة عشرين خطوة واعلمته انها وصلت حالا وبعد ذلك سمع رجة عظيمة وهي ان الوحش دفع الحجر بعزم للدخول الى المغارة

اما الصغار فاجابوا زمجرة امهم بصوت يشابه الهر ومملوء بالجزع والخوف وكانت بارودة الونا معه لكنها معطلة كما سبق القول فلم تجديه نفعا . مع ذلك وجد واسطة لاستعمالها

ورغما عن قوة الوحش سند ظهره اولا على الحجر ليثبته في مكانه وباسرع ما يكون بادر باصلاح البارودة وحشاها وعمرها . وهذه العملية تظهر بسيطة جدا في الظروف الاعتيادية لكنها تتعربس في حالة عسرة كالتي وجد فيها الونا مع ذلك تممها لدفاع المخاطر عن نفسه

وفي اثناء شغله كانت الام تزمجر بعيدة منه مسافة ثلاثة اقدام وهي تتنفس بسرعة كلية وراء الحجر المهتز والمضطرب الى ان قدرت على ادخال رأسها بين الحائط والحجر لانه لم يكن محكما جيدا لسد الحفرة ثم شعر صديقنا بلكمة من يدها ومخالبها طرقت على كتفه . لكن الونا لم يلهيه شاغل عن انهاء عمله المهم

فبعد ما دك بارودته قدح الزناد لاضرام قطعة الصوفان وعند سطع نور كل شرارة كان يلمح داخل المغارة مفروشا من عظام الحيوانات التي افترسها الاب والام ولحظ ايضاً بين تلك الذخائر الصغيرين يتفرسان به و يرتعشان عند قدح كل شرارة

وفي غضون ذلك كانت الام لم تزل مشتغلة برفع الحجر الذي يسد المدخل . اما الونا فانهى شغله وصار دوره بالمدافعة عن نفسه

ثم التفت متمسكا بالحجر بكل قوته ودس حديدة البارودة في الثغرة حيث كانت الام ادخلت راسها وقائمتها ولما رأت تلك المادة المجهولة عندها تهددتها وقبضت عليها باسنانها واجتهدت ان تبتلعها كما تفعل بالعظام .

وكان الونا قد اتكل على عدم درايتها وخبرتها وقرب قطعة الصوفان المشتعلة الى الذخير فاطلقت الضربة وابتلعت الضبعة كل ما خرج من الرصاص والبارود والنار . ثم أنّت وتنهدت طويلا فعرف الونا ان المنازعة دنت واطمأن لانعتاقه من عدوه فتنفس

لكن وقت الراحة لم يطل فبالكاد نهض الونا على ركبتيه الا وسمع هديرا ثانيا لا بل هائلا زيادة عن الاول وتاكد ان الاب بادر مسرعاً لما سمع صراخ انثاه .

ففرح الونا لسبب تأخر وصوله وحسب ذلك منة عظمى فلولا العاقة لاستغاث الذكر بقوة انثاه وفازا بمرغوبهما وافترساه . من ثم قد تجدد شغل الونا فقد نجح جيدا في المرة الاولى ولم يخطر بباله ذكر المصارعة الحديثة فانهمك ثانيا واجتهد ان يعامل الذكر كالانثى تماما وحينئذ سند ظهره ثانيا الى الحجر وابتداء يعمر قرابينته

اما الوحش فوقف برهة قرب الانثى المائتة وهدر زمجرة بصوت مؤثر وبعد الحزن العظيم تهافت واثبًا على الحجر

ولما سمع الونا ذلك اجابه بتمرمر تفسيره هذه الكلمات « اذهب يا حبيبي الآن فبعد قليل نتحادث سوية » وكان عمرّ غدارته وابتداء بقدح الزناد واذا به قد لحظ ان الصوفان فقد منه بتلك الحركة المزعجة التي ابداها وصارت الواقعة شديدة هائلة لان بدون الصوفان لا يوجد نار وبدون النار ما من واسطة للحاماة لان القرابينة معطلة وليست الا كانبوب حديدي مجوفة من الداخل ولا تستعمل الا كنبود هذه كانت كل منفعتها

ثم مدّد ذراعيه مفتشًا يمينًا ويسارا لكن عبثًا ذهب تعبه وجمع بقدميه ما كان بقربه فلم يجد سوى الحجارة والعظام

وفي اثناء ذلك كان الحجر يهتز اهتزازا شديدا والوحش ينفخ بعزم الى الداخل ويمدّ يده ملاطفًا كتف الصياد المكللة جبهته بلؤلؤ العرق من العذاب والقلق

هل كان سبب الانزعاج قلة الصبر والجزع ؟ ام الخوف ؟ ان آلونا الحرّ النشيط قرّ معترفا وقال ان عرقه لم يكن سوى خوفا ورعبة وتعبا

اخيرا تحقق ان تفتيشه يذهب سدي ومن المحال ملتقاء بالصوفان الاّ نهارا . ثم فاجأه فكر اخر . قد ذكرنا ان الغدّارة لا تستعمل الاّ

كنبودٍ لكنه اجتهد ان يصنعها كالحربة ولزمه لاجل ذلك اوضع سكينه المكسيكية في طرف القرابينة و ربطها جيدا

فكانت الواسطة سهلة جدا لان الصياد القاطن المروج يعتاد ان يحمل معه سيرا من الجلد لمساعدته اذا شأ مثلا ان يقضي الليل على شجرة فيربط نفسه بالاغصان وينام

حينئذٍ ربط آلونا سكينه في طرف انبوب البارودة وجهز بذلك سلاحاً جيدا ثم انحنى ووضع كتفه على الحجر لئلا يخرب الحاجز الفاصل بينه و بين العدو الذي ازعجه وقهره وحيره لشدة قوته العجيبة النادرة الغريبة

وعاد الى عمله ولما كان الوحش هاجما كأنه لا يخاف شرا دفع آلونا قرابينته كجندي باسلٍ حتى زمجر الضبع وسمع له ضوضاء وهياج وافلتت البارودة من يد صاحبنا متدحرجة مسافة خطوتين وفرّ الحيوان زائرا

فالتقط آلونا بندقيته وتفحصها جيدا فراى ان السكين قد تحطمت وفقدت ثلثي النصلة حيث لم يبق منها سوى قطعة صغيرة في القبضة لا تزيد عن الاصبع الواحدة ونصف وذهبت البقية في الجرح الذي سبب الزئير والزمجرة ومنها ولىّ الوحش هاربا

ان آلونا قد احتاج الى ذلك الفرار واضطر للراحة لان قوته قد فرغت من التعب والقلق . واستغنم الفرصة اولا للتخلص من الحيوانين الصغيرين اللذين اضنكاه بخدوشهما ولم يكفا عن صنيعهما في اثناء شغله بابيهما وامهما حينئذٍ اخذهما بقوائمهما الواحد بعد الاخر وحطم راسهما على حائط المغارة . وبما ان ضرورة الماء قد اعيته ولا وجود لما يحتاجه في تلك الحالة شرب دم احدهما لاطفاء غليله

من ثمّ لقي النعس قد استولى عليه ووجب التسليم له طوعاً ام كرهاً .

لكنه لم يأتمن على نفسه لئلا يأتي الوحش بعد ما تنحى يسيرا ويحفر نقباً جديدا او يدفع الحجر و يهجم عليه في رقاده و يفترسه فجاة

فارتبك في امره وعنّ له الخروج من المغارة ليتخلص من خصمه ثم ظنّ ان الحيوان يكون كامنا في الانحاء المجاورة فيهجم واثبا عليه

اخيرا قصد ان ينام في مكانه وظهره ماقى على الحجر الذي يستر مدخل الكهف وعلى هذا النسق يستطيع ان يستيقظ عند اول حركة . فرقد آلونا مرتاحاً الى الساعة الثانية صباحاً

حينئذٍ انتبه وفتح عينيه لانه سمع حركة ومعركة في الجهة المقابلة ولمح ايضاً شقوقا و رأى الحصى الصغيرة تقع متوالية كالبرَدَ وهذا دله على ابتداء عمل خارجي في السقف المرتفع نحو اثنتي عشر قدما . فتنهد طويلا وطلب المعونة من الله تعالى لينقذه من الوحش الضاري المفترس . لكنه معنّ البصر في حالته السيئة ولم يقدر ان يضع حاجزا بينه و بين الحيوان الخبيث

ثم التفت الى قرابينته العديمة المنفعة لاطلاق النار وافتكر ان يستعمل لفائدته الانبوبة وحدها لئلا يتحطم القندق و يعطل السلاح فيخسر غدارته . من ثم فكّ السكين بحذاقةٍ من طرف الحديدة مع ما بقي من النصلة وحل الخشب والبلاتين وتسلح بالانبوبة الثقيلة ووقف منتظرا وقلبه مضطرب وذراعاه مرتفعة وعينه شاخصة

ولم ينتظر طويلا الا والحجارة هرولت متساقطة بسرعة وسمع بين خلال السقف تنفس الحيوان المتصاعد السريع واشرق بغتة نور او بالاحرى نور القمر وسطعت اشعته كعمود نار بهي فوق الثقب الذي حفره الضبع .

وكان الونا يرى تارة السماء والنجوم من تلك الحفرة وتارة يراها قد سدت جيدا لان الوحش كان يجرب مدخلا رأسه فيحجب شعاع القمر الجميل و يظهر عوضا عنه وعن تلك النجوم الساطعة المتلألئة عيني الحيوان الملتهبتين كالبهرمان

من ثم تعاظم الثقب رويدا رويدا حتى ادخل الحيوان راسه ثم دس اكتافه مع بقية جسمه و بلغ مأربه فوثب من الخارج هابطا على قوائمه الاربع بمقابلة الونا ولم يبدي حراكا لان نصلة السكين المتوجة في كتفه منعته عن الهجوم ثانيا ليمسك صديقنا من حلقه و يعامله حسب شهوته الرديئة . ولحسن التوفيق توقف برهة متدفقا من الامه الشديدة وتلك الهنيهة كانت كافية لخصمه الذي ضربه بالحديدة على راسه فتدحرج وسقط دائخا ثقيلا

وفي الحال وثب الونا عليه ثانيا واخذ السكين وقطع بها عرق رقبة عدوه الضاري فتلاشت حياته وانهزمت نواه

وكان قد حان وقت الراحة والنوم فوقع الونا منسحقا تحت نير الاتعاب ثم عاد مشددا ونهض وسحب الوحش الى ناحية بعيدة من المغارة ووضعه على ارض مرملة لينة واخيرا انطرح ثانيا وفؤاده يخفق ونام حيث لم يستيقظ الا بعد بزوغ النهار بوقت طويل

الفصل الخامس عشر

(ساكرامنتو)

ان عيشة الصيد المريئة الهنيئة كانت لذيذة جدا للقاطنين في تلك البلاد او الراحلين اليها . كذلك نحن كنا مبتهجين وفرحين وعائشين بسرور لا يوصف وهناء ورضاء . نعم ان الذهاب لبيع صيدنا مرتين في الاسبوع كان يقلقنا قليلا لكننا لم نبالِ بالتعب ولم نشعر به او بالاحرى نقبله بطيب الخاطر لكثرة الارباح وعلى الاخص في مبتدا العمل حينما كانت مجازاة تعبنا وافرة جدا حيث تبلغ احيانا من الالف وخمسمائة الى الالفي فرنك اسبوعيا

قد وجدنا ان مكسبنا بلغ في الشهر الاول بعد كل المصاريف لحد الالفين فرنك ثم تناقص رويدا رويدا في الشهرين التابعين وبالتوالي الى الاسبوع الاخير حيث لم نصطاد سوى بقيمة سبعمائة فرنك وهذا المبلغ المنخفض برهن لنا ان التقادير قد بلغت حدودها

والسبب الوحيد هو ان صيدنا قد اخلى واقفر تلك الناحية ايضاً فالوحوش المطاردة قد هجرت البقعة وذهبت وربضت في جوار بحيرة لاكونا وجهة الهنود كانكلاس لان مهنة الصيد نادرة في تلك الانحاء

حينئذٍ عزمنا ان نمتحن امراً جديداً وهو الابتعاد قليلاً لجهة الشمال شرقي ومبيع ما نصطاده في ساكرامنتوسيتي . وقصدنا بوصولنا اليها ان نأخذ اخباراً عن فجاج المعادن في ساكرامنتو وفيما اذا تميزت احوالاً وعملاً عن سان جواكان . ونستعلم عن مجاري مياه نهر اليانك ونهر يابا

ونهر بلوم اذا كانت قدارتفعت وتوقفت حقيقة عن محله سونورا و باسوديل بينو والمورفوس

ولما رأينا ان مقاطعتنا قد خليت تماماً من الصيد باشرنا بتتميم قصدنا حيث تركنا الزورق في سونوما وتقدمنا نحو مذرى الاميركان ثم اجتزنا سلسلة الجبال الكاليفورنية سائرين من الغرب الى الشرق وبعد مسير مدة يومين تقريباً ونحن نشتغل بالصيد في طريقنا وجدنا حصاننا قد اعيى منحنياً تحت ثقل الطريدة وكنا بلغنا وقتئذٍ شواطي ساكرامنتو فتممنا مسيرنا على حافة النهر مدة ساعتين او ثلاثاً

واذ ذاك لقينا قارباً يتصيد حيتانا فنزلنا به ووصلنا الى الشط الاخر واما حصاننا فاجتاز المسافة سابحاً لان عمق الماء لم يتجاوز عن مقياس الربع ميل

وسألنا الصيادين عن حالة المعادن فلم يقدروا ان يعطونا افادةً وضعية حقيقية بل سمعوا ما قيل عن الاميركان الذين لم يزالوا يدمرون ويبيدون الجميع بلصوصيتهم ومكرهم وذلك لم يدهشنا البتة لاننا شاهدنا باعيننا نموذج حيلهم و برهان خبثهم في سان جواكان

اما آلونا فعند سمعه ذلك اكتفى برفع كتفيه وهزهما ثم مدّ شفتيه قائلاً «بحق ذمتي ان لهذه النوادر القبيحة حقيقية» وكان آلونا يبغض الاميركان ويظنهم اهلاً لكل انواع الجرائم لانه عرف عنهم اخباراً شتى وقصصاً غرائبياً جمة عن ذنوبهم المختلفة نظير ضرب

السكين والبنادق وما شاكل (١) وكانوا يحاكمون امام المشايخ ويجيبون بكل سفاهة ووقاحة ودناءة

فوصلنا الى ساكرامنتوسيتي وتوجهنا ايضاً الى قلعة سوتير لاطمئنان عن اخبار الضوضاء والهيجان حيث اثبت لدينا ما قاله الصيادون لان المعادن كانت منقلبة ومنهدمة

ومن خوفنا لئلا نخسر المبلغ القليل الذي ربحناه بتعب جزيل رجعنا متأثرين خطواتنا ونزلنا الى السكرامنتو في قارب استاجرناه بمائتين فرنك

ولما وصلنا الى سكرامنتوسيتي بعنا صيدنا بثمانين دولاراً . لان من جهة مذرى الاميركان لا يحسبون دراهمهم الاَّ بالدولار واما في ناحية سان جواكان فبالغروش . اذاً لم نشاء نغير نقودنا باصناف اخرى

وكان اصحاب الزورق الذي نزلت به يتعاطون صيد مهنة الحيتان فكانوا يلبون طلبنا و يطلعونا الى البر متى شئنا ولم تطل مدة سفرنا زيادة

---

(١) عدا عن ذلك فان الاخبار الاخيرة المقبلة من سان فرنسيسكو تحقق جيدا ما قاله آلونا . ألم نقراء في الجرائد اليومية ما ياتي :

« ان الحكم الاعتيادي الحالي لا يظهر كفوا للهاجرة الجديدة و ينبأ عنه احيانا تشييد المجالس لفحكم والقضاء على كل الذنوب

وقد انتخب الجمهور حاكما من بين الحاضرين لينفذ اوامره بدون مجلس او مرافعة من ثم قد اشتهر نوعاً واذا لفظ قصاص المذنب يتم قضاءه في الوقب عينه والقصاص العمومي في ذلك الحكم هو الشنق وقد قضي بالنوع المذكور على سبعة اشخاص كانوا ارتكبوا جريمة اللصوصية وسرقوا قطعاناً و بما ان ليس لهم اسناد بتوسط لغيرتهم فاثبت القصاص في مدة خمسة عشر يوماً . وذلك الحكم هو المحبوب من الجميع

واذا وجد مانع كظروف النحافة وضعف البنيه فينوبون عن الشنق ضرب السبوط او ضرب السبوط بالشنق حسب المرغوب ولا يرفض الحكم ذلك بل يقبل بطيب الخاطر ومن هنا تظهر الاعمال القاسية البربرية والمتوحشة

عن الاربعة ايام من خروجنا من سكرامنتو سيتي الى بينيسيا قرب خليج سويرون . واما آلونا فتبع الشط الايسر متطيًا جوادهُ النشيط

ان وادي سكرامنتو الواقع في بقعة جميلة زاهية وارض مخصبة جيدة التربة يحده شرقًا السيرانيفادا وغربًا الجبال الكاليفورنية وشمالاً جبل شارت وهو يمتد من الشمال الى الجنوب مسافة تنيف عن المائتين ميلاً

وفي زمن ذوبان الثلج يفيض السكرامنتو ويتصاعد الى ان يبلغ القياس المتزايد من ثمانية الى تسعة اقدام وذلك الطين الراسب في جذع الاشجار المشابه لوحل نهر النيل يبقى على شواطئ سكرامنتو ويغذي المزروعات قوةً جديدةً وخصبًا دسماً . اما انواع الاشجار المغروسة بجانبيهِ فهي السنديان والصفصاف والصنوبر والقار وعند منتصف مسافة شاطئه ترى قطعان البقر والايائل والاحصنة البرية

ويبلغ عرض السكرامنتو في بعض الانحاء نحو نصف ميل وعمقه من ثلاثة الى اربعة امتار وقد قيل انهُ تنزل بهِ مراكب تحمل مائتين طنًا

ان السكرامنتو يحوي كميةً وافرةً من الاسماك المسماة (حوت سليمان) وهو يوزع منها الى كافة المصبات المجاورة لهُ . وهذه الاسماك تهجر البحر مدة الربيع وتصعد النهر فرقًا فرقًا سائرة مسافة خمسين ميلاً وتتبع المجرى الى ان تصادف حاجزًا او مانعًا يعيقها ويعرقس مسيرها حيث تلتقي في مسلكها اشراكًا نصبها الصيادون والهنود واحيانًا تتشوش بطريقها اذ ترى قضبانًا وضعها الحراثون لحاجة الزراعة او المشتغلون بالمعادن لمصالحهم الخصوصية

حينئذٍ تعدو تلك الاسماك وتجتهد لتقطع ما صادفتهُ واذا التقت بجذع شجرة او بصخرةٍ تلتجي اليها وتتقدم محاطة ببعضها بعضًا ثم ترقد قليلاً

اتاخذ لنفسها الراحة وتعود فتنتصب بعزم وتقفز مسافةً علوها من اثنتي عشرة الى خمسة عشرة قدماً لكن تلك الوثبة تكون محدود عندها وتحترص بلياقة على نفسها لتصل سالمة الى المجرى الاعلى وتربض فيه

وعند وصولنا الى حيث الضلع السكرامنتو مع سان جواكن التقينا باثنتي عشرة جزيرة واطية مخشبة ومحاطة بالسياج وهي مملوءة من المنافع الغير مسلوكة والمغطاة بالتولا وهي نبتة يعاين منها في كل الجهات المنخفضة الرطبة . واما الصيادون فيجمعون من الاطيار مبلغاً وافراً عديداً الان تلك البقعة مغطاة بالطيور المختلفة الانواع مثل البط والكراكي والعقعق من الف جنس والف لون

ثم وصلنا الى بينيسيا بعد الاربعة ايام المذكورة و وفينا حساب صيادينا اصحاب القارب وسرنا الى ان بلغنا سونوما فلقينا زورقنا ينتظرنا فيها . فرجعنا في الليلة ذاتها الى سان فرنسيسكو بعد ما حرمنا من المبيت فيها مدة ستة اسابيع كاملة

﴿ الفصل السادس عشر ﴾

(في صيد الدب)

واذ وصلنا الى سان فرنسيسكو وجدنا كوتيه وميراندول لم يزالا مريضين (اننا نتكلم هنا عن احوال التجارة) من جري النار الاخيرة . فقد بلغت خسارتهما بنقل امتعتهما ما يساوي ضرر بقية اهل الحريقة

وفي غد وصولنا اجتمعنا باحد من اصدقائنا يسمى ادولف وهو قاطن خيمة كان نصبها بين خليج سان فرنسيسكو والجبال الكاليفورنية . فالمذكور ترحب بنا جيدا واشار علينا ان نبقى بعيته يومين وقد وعدنا بمشهد صيد الدب من ثم اجبنا طلبه وتوجهنا عنده . وفي ذينك اليومين كانت افكارنا مشتغلة ومهتمة لايجاد مهنة جديدة نتعاطاها لنحصل قوتنا الضروري من ثم اقبل يوم الصيد الموعودين به . وكان الدب الذي نتكلم الآن بصدده رماديء اللون ومنذ عشرة ايام اعتاد النزول من الجبال الكثيرة تجر الراتينج ويختطف من قطعان السكان المجاورة ولم يرتض باكل الاقصاب الصغيرة التي تصحبها مجاري السواقي (مع ان تلك الحيوانات شرهة جدا بهذا النوع) بل تجرأ وتجاوز الحدود وصار يهجم على الماشية ويفترس منها عددا . فاجتمع الاهلون وعلى الاغلب المكسيكيون قاصدين اخذ الوحش بالجنازير

وبما ان بسالة الونا كانت مشهورة في الصيد وضعوه في مقدمتهم وكمن الثلاثون رجلا المتأهبين مع جيادهم لمساعدة بعضهم بعضاً

ونزل الدب عند بزوغ الفجر . اما الصيادون فكانت مواضعهم متفرقة ولو كان الدب اصغر سنا لاضطرب وفر من ذلك المشهد الفجائي لكن المذكور وقف منتصباً على قائمتيه الخلفيتين وعرف جيدا الخطر المخبأ له لانه توجه مسرعا لناحية الشجر الكامن ورآها الصياد الاول

ان الصياد الاول لم يكن الا عزيزنا الونا الذي قبل المصارعة ببسالة خرج من بين الاشجار مسرعاً لملاقاته . ولما اقترب منه على مسافة ثلاثين خطوة رماه بالجنزير فالتف حول رقبته واحدى قوائمه وبادر فربط الطرف في قربوس السرج ونادى ارفاقه قائلا

— اسرعوا انتم وهيئوا اذا فقد مسكنه !

اما الدب فاستمر برهة مذهولا دائخا من الاصابة الاولى التي داهمته وظهر كأنه لم يفهم شيئا من ما جرى له ولم يشعر بالم من الضربة بل نظر الى الحبل الملتف حوله وشخص مندهشاً بدون قلق او ارتباك

ثم رمي فوقه ايضاً عدة من الجنازير واصابت جهات كثيرة وحوطته بقوة . حينئذ حاول الدب ان يهجم على الصيادين الذين دفعوا خيولهم للراكضة و بادروا بالفرار امامه وهو لم يزل ملتفا في قيوده وتكبد عذابا اليما ليلحقهم وفي اثناء ذلك خرج الصيادون الآخرون من مخبأهم واحاطوه بشبك جديد حتى صار ببرهة من الزمان مقيدا بثلاثين جنزيرا وكأنه اخذ بالفخ

وعرف انه لا يستطيع المحاربة بتلك المصيدة الخداعة وندم لتركه الجبل مربضه واراد العودة اليه لولا عدم رخصة الصيادين بذلك

فصار يجرب مرة الفرار منهم وتارة يظهر له النجاح وانه قد تخلص وطورا يجذب الصيادين مع خيولهم ليعدون مسافة خمسين خطوة وهم ملتزمون اتباع تحريضه العنيف

اخيرا توقفوا معا و بصراخ الانتصار والشجاعة مع مساعدة ضربات بالمخس استطاعوا الهجوم عليه . اما ذلك المشهد فكان مخيفا جدا والقوة الجاذبة بعزم تلك الجماعة العديدة لتستحق ان نذكر نادرتها

من ثم قدروا ان يربطوه بعد ما احتملوا عذابات شتى . وكانت عيناه تجريان دما كينبوعين و يقذف من فيه لهيبا وزمجرة ترن بعد مسافة فرسخ من ذلك المكان . و بعد المصارعة مدة ساعة واحدة من الزمان سلم الحيوان نفسه فسحبوه الى محلة دون كاستر وقتلوه بضرب البنادق

وبلغ وزن ذلك الدب نحو احدى عشر مئة ليبرة اي ضعف الثور الاعتيادي . وتقسم على الصيادين اجزاء فبيعت قطعة من لحمه في سوق سان فرنسيسكو بما يساوي ثمن الليبرة اربعة من الفرنكات واشتراها الجزارون بثلاثة لا غير

ان ذلك الصيد ذكر الونا بايام شبوبيته الجميلة حتى عنّ على خاطره واشار علينا بالرحيل الى مار پيوزا لصيد الدب منها وحرضنا أن لا نعود الى سان فرنسيسكو الا لقرب اواسط ايلول

فقبلنا مشورته الحسنة وفي تلك العشية رجعنا الى المدينة وقصدنا تتميم ما ذكرناه باسرع ما يكون .

الفصل السابع عشر

(في المار پيوزا)

وقبل ذهابنا الى مار پيوزا وجب ان نستعد حديثاً لان القارب لم يلزمه البتة بل الظروف احوجتنا ان نشتري عربةً وحصاناً حينئذٍ بعنا زورقنا وتبضعنا تقريباً بثمنه كل ما اضطر بنا اليه

واما المساكن التي هنالك فكما سبق الكلام عنها تشبه القلعة الصغيرة حيث توضع بعض العساكر . ومنها يمائل الاكواخ وحتى اذا وجدت مجاورة لبعضها يدعونها مزرعة

قد بقي علينا ايضاً ان نشرح قليلاً عن الميسيون والدساكر . اما الميسيون فهو كناية عن بنايات واسعة عظيمة تدخل بها الهنود

الراغبين التثقف واعتناق الديانة المسيحية و بعد اقتبالها يشتغلون بالصنايع

ومن رأى واحداً من هذه الابنية فقد عرفها جميعاً لانها مبنية على نسق واحد . وبالاختصار هي بناء واسع مربع المساحة يحتوي على قلالي عديدة او قليلة حسب اتساع البقعة ولكل غرفة باب ونافذة . ويشيد البعض في زاوية البناء الكنيسة وقبة الجرس . و يوجد في تلك الاماكنة اشجار وعين ماء عذبة تجعل الرطوبة دائمة في الدار

وتلك المحلات تختص بالكبوشيين عموماً وهم يعينون راهبين لكل بيت ليدبر انه باوامرهما . فيستلم الواحد الاعمال الروحية والارشاد والتعليم والثاني يسوس الاشغال الجسمانية

من ثم يوجد في داخل المنزل ذاته عدة دكاكين للحدادين ومن المطاحن ومعامل الصابون والنجارة من حيث يرى الكل بهيئة مرتبة حسنة هادئة ليبقى الجناح الخصوصي لسكن الرهبان ومخادع الغرباء . وما بقي من انحاء البيت يؤخذ للمدارس ومخازن الاكل ومستشفيات المرضى

وحول ذلك البناء تمتد الحدائق الى مسافة بعيدة . واكوخ اهالي البلد مبنية من القش والقصب كالاخصاص الاعتيادية . ومن عوائد الميسيون تقدمة الاغذية للشبان المهتدين حيث يوزعونها بترتيب ونظام والصكيلا يذهبون الى الصحراء لاحضار ما يلزمهم يقتنعون بما في جنائنهم ويهيئون طعامهم والهنود . وقد تصنع تلك الاغذية احياناً من كعك الذرة ولحم البقر او لحم الخروف المسلوق مع الفواكه والخضر المختلفة الاجناس . وهم لا يذوقون خمراً البتة بل ما يصنعونه في داخل الميسيون وكلما يجلبونه من المدن يستبقونه للمرضى والغرباء

وقد اجتهدوا و بذلوا غيرتهم بتعليم المهتدين والفعلة وكل ما يصنع

عندهم لا يتم الا بطيب الخاطر او الاعتقاد والاقناع وليس بالرغم والقوة

واما الدساكر فهي قرى صغيرة تأسست اصلا من الجنود الذين انهوا مدتهم المعينة في الخدمة . فان الحكومة تقدم لهم منحة ايفاء لخدمتهم وتعبهم ونشاطهم وتلك الهبة هي قطعة ارض صغيرة يختارونها حسب رغبتهم في البقعة المستقلة . فيأخذون الارض تحت سلطتهم وكل يتصرف بها نظير همته ومرغوبه

يوجد في كل بلاد كاليفورنا اربعة فقط من هذه الدساكر وهي كوستراسيتورادي لوسانجيليس وسانتا برباره وفرانسيسكو وسان جوزه

في يوم رحيلنا ذهبنا لمبيت في دسكرة سان جوزه الواقعة في وسط واد جميل على الكوادالوب وهو نهير صغير ينبع من الجبال الكاليفورنية ويصب في خليج سان فرنسيسكو ولا يبعد عن ميسيون سانتا كلارا اكثر من اربعة فراسخ وكل ذلك الحاجز الجميل مظلل باشجار السنديان الخضراء

قد اعتنى الرهبان بغرس تلك الشجيرات لتنمو وتظلل المؤمنين الذاهبين من سان جوزه الى سانتا كلارا لاجل استماع القداس

ان دسكرة سان جوزه قد بنيت سنة ١٨٧٧ او سنة ١٧٧٨ لكن لم يوجد بها من السكان اكثر من ستمائة نفس قبل اكتشاف التبر اي سنة ١٨٤٨ وكلهم يقطنون بيوتات مبنية من الطوب متفرقة في موضعين مغروسين بالاشجار الجميلة

اما اليوم او بالاحرى زمن ذهابنا للمبيت في سان جوزه فقد احتوت على الف من المساكن ذات الطبقتين او ثلاثة وبلغ عدد الشعب لحد الخمسة آلاف نسمة وليث متزايدا كل الايام . وهذا النمو سبب تغيرات عظيمة

وعوضاً ما كانوا يهبون الارض مجانا صارت تباع باثمان وافرة نامية

وفي تشرين الاول من سنة ١٨٤٩ عقدت جلسة وتقدم فيها راي فيما ان دسكرة سان جوزه تصير عاصمة لكاليفورنيا وقد نبذ الطلب المذكور من اتفاق الاهلين مع ذلك لم يزدد عدد السكان ولم ترتفع اسعار الاراضي ·

وبالانتظار للراي المعقود كانوا يبنون في زمن وصولنا قصرا عاليا شاهقا وقصدوا ان يتمموه و يدعونه البلاط الملوكي لوضع القوانين والشرائع وموقعه في الساحة الكبيرة ·

ومن ذلك الحين دعيت دسكرة سان جوزه الثانية في المملكة وقد اتصلت مع خليج سانتا كلارا بواسطة الريو كوادالوب وموقعها بين سان فرنسيسكو ومونتريه ·

اما الميسيون في سان جوزه فموقعهُ في الشمال بعيداً مسافة خمسة عشر ميلاً وهو مبني في اسفل سلسلة جبال صغيرة تدعى بوليون التي ليست سوى حلقة سلسله انفكت عن الجبال الكاليفورنية العظيمة

وفي مدة البضع ساعات التي نزلناها في سان جوزه قدرنا ان نختبر عن مبيع الصبد وثمراتهُ الوافية الناتجة نظير مدينة سان فرنسيسكو

منذ الغد رحلنا وصعدنا باستقامة متوجهين الى الجبال الكاليفورنية · ولم نضطر للمسير اكثر من يوم واحد الا واستطاع آلونا ان يكتشف وجود الدب بعلامتين اكيدتين · الاولى منها الآثار التي يتركها الدب في الاراضي المرملة والثانية من القصب المغروس على مجاري الانهر الصغيرة من حيث اتضح لديه كيفية الاكل منها لان ذلك الوحش يلتذ جداً باغتذاءٍ من نوعها

حينئذٍ نصبنا مأوانا وانتظرنا الليل . من ثم اقتضى الامر ان نتعلم مهنةً جديدة بذلك الصيد فافهمنا آلونا ما ينبغي عمله ليلاً . ثم جلسنا معاً للمرصاد واصطفينا الواحد بقرب الآخر وكانت المقرابينة والجنزير بيد آلونا والبنادق والحربات في ايدينا

واصغى آلونا ساكتاً مستنداً لجانب سنديانة ثخينة كقدم انسان وهكذا كمنا منتظرين مدة ساعتين الى ان نزل دبٌ من الجبل ومرّ بعيداً منا مسافة عشرين خطوة . وكان ذلك الحيوان اسود اللون صغير القامة يبلغ وزنهُ من مائتين وخمسين الى ثلاثمائه ليبرة

فرماهُ آلونا بالجنزير الذي التفّ حوله من الثلاث جهات ثم ضبط مسرعاً الطرف الآخر حيث ربطهُ في الشجرة واخذ غدارتهُ راكضاً الى الدب وفيما كان الحيوان مختبطاً في الفخ القريب قتله برصاصة في اذنهِ

ان ذلك الصيد الخصوصي بمعرفة رمي الجنزير كان غير ممكناً لدينا بل وجب مهارة آلونا وبسالته لان غباوتنا وخوفنا كانا لا يوصفان مع ذلك اجتهد صديقنا وارانا الوسائط التي يستعملها وعلمنا ما يلزم ان نفعل فوجدنا تلك الايضاحات سهلة بسيطة

وبعد موت الدب وتنظيفه اخذه آلونا ووضعه في مأوى الاغصان حرصاً من وفود ابن اوى ثم ركضنا مسرعين نفتش على مكان آخر . ولم يكن الموضع عسر الوجود لان آلونا قادنا الى ناحية ظهرت لهُ مخصبة اخيراً وضع جنزيره وغدارته بين يديّ واخذ بندقيتي ذات الطلقتين واشتغل نيابةً عني ليربني ما يقتضي ان اصنع

فرأينا دباً نازلاً ووقف ليشرب بعيداً منا مسافة ثلاثين خطوة تقريباً . وتلك الحالة ظهرت مناسبة جداً لعزيزنا آلونا فقال لنا :

— بكيفية وقوف هذا الوحش يمكنني قتلهُ بطلقة واحدة لكنني مزمعٌ ان اجرحهُ فقط كما لو صنعتما وحدكما لاريكما ما يجب ان تفعلاهُ

وفي البرهة عينها خرجت الطلقة واصيب الدبّ حالاً في كتفه وصرخ مزمجرًا وتحوّل مذعورًا ليرى من اين يفاجئهُ العارض حينئذٍ ظهر آلونا وبادر لملاقاتهِ

لما رأى الدبّ خصمه فعوضًا من ان يفر هاربًا تقدم لمقابلتهِ مسافة بضع خطوات ثم اقترب آلونا ايضًا حتى صار الحد الفاصل بينهما يسيرًا وانتصب الوحش مستقيماً على قائمتيهِ الخلفيتين واستعد لخنق عدوهِ

فاستغنم آلونا الوقت ووافقهُ على صدره بضربةٍ دفعها عاجلاً . فتدحرج الدبّ بجملته كأنه كديسة واحدة

— ثم قال لنا آلونا هل نظرتما جيدًا ما فعلت . مثلاً اذ اضربتما دبًا ولقلة التصيب لم تصيباهُ بالطلقة الثانية او لسبب مغالطه الغدارة فلا يبقى لكما سوى الحربه وفي اول فرصة ساريكما كيفية استعمالها واما في هذه الليلة فمن الاوفق ان نكف عن الصيد وعدا عن ذلك فان الدبب قد تنحت وسمعت اطلاق البندقية ثلاث دفعات متوالية

في الغد حملنا الحيوانين الى سان جوزه وبعنا كل قطعة بقيمة خمسمائة من الفرنكات . وفي الليله التالية قصدنا ان نجرب خبرتنا ومعرفتنا للمرة الاولى .

فوافقتني الصدفة حالا حيث رأيت دبا مهرولا بعيدا منا نحو خمسة عشرة خطوة . واستعد تيليه معي لمساعدة الواحد للآخر . حينئذ توقف الوحش اذ رأى باقة من القصب ظهرت له لذيذة جدا وانتصب على قدميه الخلفيتين امامها وقبض عليها بقائمتيه المقدمتين كما يفعل الحصاد بحزمة

الحنطة وابتدأ ياكل محنيا رأسه ليأخذ اولا الفروع الطرية الغضة وباقامته هكذا كان صدره منكشفا ومفتوحا الينا فاطلقت النار واصابت الرصاصة تحت كتفه واهتزّ الدب وسقط متدحرجاً الى الساقية

وقد بذل مجهوده ليجمع قواه وينهض ثانيا لكن بدون فائدة لانه لم يستطع الوصول الى منحدر الحافة الواحدة ولا الى الاخرى وبعد مرور خمس دقائق دنت المنازعة ومات مزمجرا زمجرة هائلة التي لو حسبما قيل لجمعت كل انواع الدب الرابضة في الجبال الكاليفورنية . ومنذ الصيد المذكور علمنا ان مهنتنا قد اتقنت فلم نعد نفتكر معتمين بشأنها البتة

وفي النهار وقت الراحة كنا نشتغل بصيد اعتيادي اذ نلتقي تيوساً وارانبا واحجالا واما الايائل فقد ندر وجودها عن ناحية سونوما من ثم لم نقتل سوى واحدا وبدهشة عظيمة وجدته مخروطا (اي مخصيا)

فناديت الونا لارية الاعجوبة . فقال لي ان ذلك يحدث مرارا لان سكان الخيم ياخذون الايائل الصغيرة لصنع ذاك العمل ويتركونها في البرية . وهذه الواسطة لها فائدة ويسمن الايل جدا فيكون نصيبا حسنا للصياد الذي ياخذه فيما بعد لان لحمه يختلف طعما كاختلاف لحم البقر من الثور

في ذلك اليوم نفسه الذي به قنصت الايل قتلت ايضاً حية جميلة بيضاء وزرقاء اذ اتيتها ملتفة على عروق الترمس فاتحة فاها في وسط تلك الازهار الزرقة اللون الجميلة وظهرت انها مسحورة بتلك المناظر البديعة ثم زحفت من غصن الى اخر صارخة فحينئذ دفعت رصاصة في راس الدبابة التي سقطت وهي تنفخ وزال الحر عنها بلحظة وشاهدت ايضاً سنجابا يقفز من الاغصان الوسطى الى العليا ومنها الى الشجرة المجاورة

قد جهلت حقيقة معرفة نوع تلك الحية ولم ارى اذا كانت سامة ام لا مع ذلك تمكنت ان اقف بعيدا وهي لم توجه بصرها نحوي واما الرصاصة فقد حرمتها من القسم الاعلى من رأسها مع قليل من وراء عينيها من ثم افهمنا الونا انها من جنس البوا التي بدون سم وكان طولها يبلغ اكثر من ثلاثة امتار

عدا عن ذلك لم نصادف شيئا يحرز الملاحظة في مدة الشهر الذي مضيناه في الجبال الكاليفورنية سوى التقائنا بالهنود ناشته الذي ارادوا سلب عربتنا وحصاننا

وقد خنق الونا منهم هنديا بجنزيره ونحن جرحنا سواه بضربة بندقية اما هم فقتلوا حصاننا بطعنة سهم ففرحنا لانهم لم يصيبوا جواد الونا

وتلك الانبال يعملونها من القصب يبلغ طول الواحدة منها ما ينيف عن المتر الواحد وهي مروسة من الطرف الواحد مقدار ست اصابع . وفي وسطها قصبة مندمجة في القسم الاعلى حيث يستخدمونها هكذا : لما يشاؤن ارجاع النبلة من جرح الانسان او الحيوان يجتهدون ليفرزوا القطعة المتحركة المدفوعة في الجسم والعليا تعود وحدها فارغة . وتلك المادة الغير مستطاع اخراجها لا تسبب الموت الا نادرا لكن راس السهم ايضاً مدرع بقطعة زجاجية مسنونة وحادة

وقد اخذت معي من تلك الانبال خمسا قد وجدتها في ذلك الميدان . وكانت سحبت علينا لكن لم يصبنا واحد منها

من ثم فقد حصل معنا في اخر الشهر نظير ما جرى في ناحية سان فرنسيسكو وهو اننا اقفرنا البلد او بالاحرى فرت الطريدة من جهة وادي تولارس اعني لمسافة بعيدة من سان فرنسيسكو كذلك ايضاً من ناحية

سان جوزه وهذا مما يجعل الصيد ان لا يصل للمبيع رخصا جديدا اذاً ابطل عملنا وتلاشت مهنتنا فالتزمنا العودة الى سان فرنسيسكو مع ذلك قد بلغت وادركت ما كنت ارغبه وتمناه

الفصل الثامن عشر

(عملت لوكندجيا الى ان تعلمت)

« بيع الخمر »

وقد كنت ارغب السكنى في بيت صغير في مدينة سان فرنسيسكو ان حالة طالب التبر تكون سعيدة جد اذا شاء ان يشتغل مع جمعية ما واما اخلاقنا المعرضة للخطر والملوة من الاهواء والخواطر لا تنجح بالشراكة الا بصعوبة كلية . وقد سافر ثلاثون رجلا معا وقصدوا حالفين ان لا يفترقوا ابدا و بوصولهم الى امكنة الشغل ارتفعت الخصومات وكل منهم ابدى رايا جديدا وتمسك بارادته طالبا خضوع الجميع له فانحلت الجمعية من الرباط قبل المباشرة بالعمل

فيرى من ذلك كما في كل المعاملة البشرية . و بين الخمسين رجلا المشتغلين بالمعادن في امكنة التبر لا يوجد سوى خمسة او سته فقط من ذوي الاخلاق والطبائع الثابتة وهم وحدهم يمتلكون ثروة واما الاخرون المتقلبون رايا الذين ينفرون من ناحية و يعدون الى الاخرى او يرجعون الى سان فرنسيسكو فلا يكسبون سوى العناء والشقاء . وعدا عن ذلك

ينبغي ان لا ننسى الضد والعداوة والقتل والموت

فاذا شاء احدٌ او رغب الذهاب الى المعادن — يجب عليَّ ان اقدم النصائح لمن يجب الرحيل الى ارض المعادن مع انني لم استعملها لفائدة نفسي

— اذا رغب احدٌ الذهاب الى المعادن كما قلت يلزم :

اولاً — يجب على الانسان ان يتزود من القوت والمونة والادوات ما يكفيه لكل المدة التي يجب ان يمضيها هنالك

ثانيا — ان يتوقف في مكان اذا وجده ثميناً ومخصباً بالتبر ولا يحول دونه اذا القي الفائدة به

ثالثا — ان يبني لنفسه مأوى لكي لا يؤثر به الندى الدجوي ولا رطوبة الصباح

رابعا — ان لا يشتغل في الماء تحت حرارة الشمس اعني من الساعة الحادية عشرة صباحاً الى الساعة الثالثة من بعد الظهر

خامسا — ان يكون قنعاً قشفاً متزهداً بالاشربة المقوية ويأكل طعاماً بسيطاً قانونياً

ومن يبتعد عن هذه التعاليم والارشادات لا ينتفع شيئاً بل يكابد عذابات جمة ويكره العيش وتشمئز نفسه ويقع مريضاً فيموت لا محالة

من ثم اقتنعت ووجدت مهنة اتعاطاها . فعدا عن اخراج التبر يوجد وسائط كثيرة لكسب الدراهم في سان فرنسيسكو وصنعة اخراج المعادن الاكثر رائجة من غيرها كانت بالعكس الاقل مكفولة من سواها

في مدة اقامتي في سان فرنسيسكو داهمني فكرٌ ان اشتري بالجملة خمراً من المراكب الواصلة وابيعه ثانياً بالمفرق وهذه احسن ملاحظة لقيتها التقويم العمل في التقويمات التجربة الصغيرة وعللت نفسي بالتقدم

والنجاح بواسطتها . من ثم لزمني ان اتعلم المهنة المذكورة لانني لم اعرفها قبلاً

قد قلت سابقاً بان الانسان ينسى ماضيه لما يضع قدمه في ارض سان فرنسيسكو . وكل ما يتذكره من اثار العالم القديم كالالفة والمعاشرة وما شاكلهما يغيب عن ابصاره كالبخار الذي لا يصلح شيئاً بوجوده بل يتم بدون فائدة سماء المستقبل

عند رجوعي الى سان فرنسيسكو كان اول من نظرته على المينا هو ابن حاكم من فرنسا كان يشتغل نوتياً حينئذٍ تشجعت نوعاً وقدرت انا الذي لم تترك لي ثورة سنة ١٨٣٠ شيئاً من الميراث ان انعزّي واشتغل لوكندجياً

اما تيليه فقد عمل صانع جزار براتب شهري يساوي خمسمائة فرنك . وانا شكراً لصديقي كوتيه الذي كان ياكل في لوكندة ريشيليو دخلت في الاوتيل المذكور برتبة مناظر المائدة والاجرة الشهرية كانت لحد السبعمائة وخمسين فرنكا

وكانت مائدة المضيف بعشرة من الفرنكات وكل له نصف قزازة من الخمر . يفهم من هنا ان القيمة تضاعف تماماً الاثمان في باريس واما اللذة فتنقص النصف عنها ايضاً

فاستمريت في اوتيل ريشيليو شهراً واحداً تعلمت في غضونه مهنة الخمر والكحول والمشروبات وبعد تتمة علمي جمعت دراهمي معاً التي كنت كسبتها ايضاً بصحبة آلونا وتيليه فبلغت ما يساوي التسعة الآف من الفرنكات . فرأيت ان ذلك المبلغ يكفي لابداع تجارتي الصغيرة وقصدت ان اباشر بها . ثم خرجت من اوتيل ريشيليو وبدأت افتش على بيت صغير

حينئذٍ التقيت ببرغوني وطلبي في احدى زوايا شارع الباسيفيك اذ وجدتُ كوخاً من خشب فصنعت الطبقة السفلى منه خاناً والبقية غرفه صغيرة لكتابة حساباتي مع مخدعين للنوم

بالنتيجة اكتريت البيت المذكور بقيمة الفين من الفرنكات شهرياً وبادرت مسرعاً للعمل

فليتأمل القارئ حالتي هذه ويحكم · انني بذلت مجهودي وقواي لئلا اخسر راس مالي الذي هو ليس سوى التسعة الآف فرنك وجزعت جداً من ان يستلمها المؤجر رويداً رويداً بدون اني اكتسب فائدة

وكانت عادة الاميركان ان ياكلوا ويشربوا من الصباح الى المساء وكل برهة يتركون اشغالهم ليترطبوا بكأس من المشروبات · ففرحت جداً لان مهنتي تكون رائجة ولان تصوراتي لم تذهب عبثاً

ولما يقبل الليل الذي به المنفعة الكبرى الجيدة ايضاً يطوف البوليس الاصغر سناً من البوليس الفرنسوي لا بل الاكثر ذكاوة ويؤذن اصحاب القهاوي وباعة الخمر ان يبقوا محلاتهم مفتوحة الى الصباح · وهذه الحالة تدعش المدينة وتجعلها ان تعيش بكل هدوٍ وطمأنينة ليلاً ونهاراً

اما طريقة السرقة والقتل فكانت رائجة ايضاً والقتل لا يكون عندهم الا على سبيل الانتقام فقط

وفي تلك المدينة لا احد يشتغل ليلا سوى محلات الالعاب والمسرات

وكان محلي بقرب البولكا مجاوراً للديرادو بالنتيجة كان عندنا المقامرون المفلسون والمقامرون الاغنياء وهما وجهان الجنس البشري · اي الهيئة المكتئبة والهيئة المبتسمة

كنت اعرف احوال المقامرين كالدرس الممارس · حقيقة · مثلا

يأتي فلان من المعدن ويلعب فيخسر في سهرته سبائك تساوي الالف فرنك . ثم يقلب جيوبه ليدفع من التبر لمشترى كأس صغير . واذا لم يجد يأخذ مطلوبه من الخمر بالدين الى حين عودته من المعادن ثانية

ان داخل محل القمار وما كان يجري به لهوَ مهول وفظيع جداً لان اللاعب لا يصير الا بالسبائك الذهبية التي يزنها المقامر بميزانه حينما يكسبها ولما تفرغ السبائك ينوبون عنها بالعقود والسلاسل والساعات محلين الكل للتقادير والصدفة التي لا تجازيهم بدلا البتة

وفيما نحن في احدى الليالي اذ سمعنا صراخاً هائلا يقول (القتيل) فركضنا مسرعين ورأينا رجلا فرنساويا قتله ثلاثة من الرجال المكسيكيين وقد اصيب بثلاث طعنات سكين وكان قريباً ان يسلم روحه لان الجرح المثلث الاصابات ظهر مميتاً

فحملناه مائتاً الى البيت (وقد مات على الطريق) وكان يدعى لاكور

ومن الثلاثة القاتلين لم يلقَ القبض الا على واحدٍ منهم الذي امسك وحكم عليه بالشنق وهذه المرة كانت الثالثة من بعد التئام الاحكام . وكان الجمهور قد تأهب ملتذاً جداً لمشهده

والتعاسة كان الموضع الذي نصبت به المشنقة — المشنقة تبقى منصوبة مستمرة لاخافة المجرمين — غير منظوماً حيث لم يسلم بعد للنجارين ليشتغلوا به . وكانوا قد حفروا بئراً اصطناعية وجعلوا تلك الحفرة عميقة يقدر علو الخشبة . وبما ان البئر كانت ضرورية زيادة عن المشنقة لانها توزع الماء الى كل الينابيع التي في المدينة وقد سبق وذكرنا عن قلة الماء في سان فرنسيسكو يدلوا تلك المشنقة المختصة بالبر بواحدة بحرية

فقدمت احدى البوارج الانكليزية واحداً من صواريها هبة لذلك

العمل وقبلتها حكومة سان فرنسيسكو بشكرٍ فاصابت الواقعة رجلا مكسيكيًا عوضًا عن وطنيي البلاد المتحدة

ولكي يبسط الجمع حسب المرغوب تعينت الساعة الحادية عشرة صباحًا لتنفيذ الاوامر ومذ الساعة الثامنة كان شارع الباسيفيك حيث محل السجن غاصًا بجمهور المتفرجين

وعند الساعة العاشرة ونصف ظهرت رجال الضابطة المعروفين من ازرارهم البيضاء المعلقة في عراهم كالعلامة او النيشان . ثم دخلوا السجن واغلق الباب ورآهم وفي تلك البرهة سمع المذنب ضوضاء وفروغ صبر العشرين الف نسمة المنتظرين

اخيرًا فتح الباب وظهر المجرم وكانت يداه غير موثوقتين وراسه عريانًا ولم يلبس سوى صدرية صغيرة مكسيكية و بنطلونًا ممزقًا واما السترة فقد حملها على كتفه

ثم قادوه الى وارف العظيم حيث كان القارب معدًا له فنزل به مع الضابطية والشرط وذهب معه وقتئذٍ نحو ثلاثون قاربًا و بها عددٌ من الفضوليين الذين لا يريدون ان يخسروا شيئًا من ذلك المشهد

وكان وارف العظيم وكل الساحل غاصين بالمتفرجين . اما انا فكنت من اولئك الذين ابثوا على اليابسة لان الشجاعة لم تعضدني للذهاب بعيدا

ولما وصل المذنب الى شاطئ البارجة على الحافة تمامًا اعدّ نفسه للشنق مساعدا الجلاد بوضع الحبل في رقبته التي احناها بكل سهولة وخضوع ليربط بها وفي الحال غطوا هامته ببرقع اسود اخفى وجهه عن المتفرجين

ثم اعطيت اشارة وتقدم اربعة شبان من البحرية وسحبوا الحبل فتغطى المذنب وارتفع الى اعلى الصاري العظيم

وبعد هنيهة اهتز الجسم مضطربًا ثم عاد ولبث جامدًا لا يبدي حركة قد انتهت الاوامر

فتركوا الجثة معلقة عرضةً لاعين المتفرجين وقتًا من النهار وعند المساء انزلوها قاربًا وحملت الى المقبرة

الفصل التاسع عشر

(في الحريقة)

قد سبق القول عن قلة وجود الماء في سان فرنسيسكو وتكلمنا عن جماعة الطلمبجية واوضحنا ايضًا انهم كانوا يحفرون بئرًا اصطناعية معدة لتفريق المياه الى كل بنابيع المدينة . وفيما هم بالانتظار لتتمة العمل كانت حركة الطلمبجية لم تزل شديدة حيث نراهم في كل الاوقات مسرعين بطلمباتهم وبرانيطهم الاميركية على راسهم ولابسين بنطلونهم الازرق يطوفون من طرف المدينة الواحد الى الاخر . وهذا يعلن وجود كثرة النار في سان فرنسيسكو

منذ شبوبيتي كنت افتكر دائمًا بان السبب الوحيد الذي يجعلني ان ابدد دراهمي ليس هو سوى قلة وجود ناحية لاخبئها ولم اطمأن على حالة حقيقية امنية واكيدة فلذا المانع كنت اوزعها بسهولة الى جيوب الاخرين فمذ ملكت بيتًا اعتنيت اولاً ان اشتري صندوقًا حديديًا

فلفيت مرغوبي واخذت واحدًا حديديًا جميلاً وثقيلاً حتى انني

كنت بالكاد استطيع على حراكه و بلغت قيمته خمسمائة فرنكا دفعتها وطمئنت نفسي بجهاودة المبيع

ثم قلت في نفسي لعل النار داهمت بيتي فصندوقي يحامي عن مكنوناته لانه حديدي فاجده كالحفرة المحبوء بها الذهب والفضة او القيه بعد النار ذائباً مسبوكاً معاً وعلى الحالتين افوز به . وقد وضعت صندوقي بالقرب من مكتبي وكنت آتي اليه في المساء واضع به ربحي اليومي . وذلك الكسب كان يساوي بعد كل المصارفات من المائة واحياناً الى المئة وخمسين فرنكاً يومياً

ولكثرة الارباح اشتريت بمبلغ وافر خمسة ازقة من الخمر و بعض براميل من العرق والمشروبات ودفعت ثمنها الى القيطان مازاكران الذي كان على الباخرة فلم يعد باقياً في صندوقي سوى خمسة آلاف من الفرنكات

وفي الخامس عشر من شهر ايلول اتى الخادمان صباحاً وايقظاني بغتةً طارقين الباب بعزم وصرخا «النار النار»

قد قلت اذاً بان كلمة او بالاحرى وجود (النار) في سان فرنسيسكو المبنية كلها بالاخشاب هي هائلة ومشومة جداً وعلى الاخص في هذه الايام لان شوارع المدينة مسقفة بالاخشاب عوضاً عن التراب والطين وذلك لسهولة مجرى النار بسرعة من طرف الشارع الواحد الى الآخر

وعند الصراخ القائل (النار) يجب اولاً على الانسان ان يهتم بخلاص ذاته والنجاة . و رغماً عن ذلك المبدا الحقيقي ركضت قبلاً الى صندوقي وقفلته بالمفتاح ثم طرحته من الشباك . اخيراً لبست بنطلوني واردت الفرار نازلاً على السلم . و بما ان الوقت كان مؤخراً جدا ولم يبقَ لي ممرٌ في

الطريق ولو بالاسراع والعجلة اخذت نصيبي وقفزت من النافذة

وكانت النار مبتدئة في قبو البيت المجاور الغير مسكون . فحزنت ونشذ على بيتي المملو من الخمر والكحول الذي اوقدته النار حالاً حتى ان جميع طلمبجية سان فرنسيسكو عجزت عن اخماد سعيره . اما الصندوق فلم افتكر بنجاته وتاكدت سلامة محتواه

فاستمرت الحريقة مندلعة مدة ساعتين ونصف ردمت بها ثلاثماية بيت مع كل حارة الخبازين ولحسن التوفيق لم تصل النار الى خبازنا القاطن في اعلى الشارع الباسيفيك . فذهبت اليه فترحب بي وقدم لي ملجاء ومأوى قبلتهما بشكر وثناء . وذلك الرجل الشجاع يلقب بالرجل العادل واسمه اريستيد

من ثم لم يبق لي من الامال سوى صندوقي الوحيد وقد انتظرت بملل وبأس برود الرماد واستعديت انبش الارض مع اصدقائي تيليه وميراندول وكوتيه وخادمي الذين تهيأوا جميعاً لمساعدتي . وجلس كل منا بالمناوبة لحراسة تلك الناحية خوفاً من ان يسبقنا احد لعمل ما قصدناه . وبعد مرور ثلاثة ايام استطعنا ان نضع المعول وبادرنا بالتفتيش في ذلك الرماد والخراب والدمار

كنت متحققاً ان الصندوق قد هبط بثقله من الاوضة الكبيرة الى القبو وعرفت انه محفوظ ومصان بلا ريب مع ذلك حفرنا ونبشنا ولكن بدون فائدة ولم نرَ اثر الصندوق فظننت حالا انه مسروق لا محالة

ثم لقيت بغتة مادة منجمدة من الحديد تبلغ حجم البيضة وكلها خشونة والوانها ساطعة جميلة مذهبة ومفضضة فعلمت ان صندوقي قد ذاب كالشمع في وسط الموقد الملتهب . ولقيت نحاساً احمر كوارنت

انني اقرّ بعدم التصديق والشك الذي اصابني فلم اثبت ابدًا ان كومة حديدية يزيد قياس سطحها عن القدمين المكعبين لا يرسب منها سوى قدر حجم البيضة . واعترف ايضًا انني لم استطع ان افهم عن صندوقي الذي ينيف عن الستين ليبرة وهو الذخيرة الوحيدة والفريدة لا يصير الا مادة مجمدة من الحديد والفضة والذهب يساوي وزنها خمسة او ستة اواق مع ذلك وجب ان اصدق ما حدث ولزم ان افهم ما جرى

وقد تقدم رجلٌ انكليزيٌ طالبًا مني تلك القطعة الحديدية فرفضت بيعها بخمسمائة من الفرنكات وكان يرغب اخذها ليقدمها هدية الى ديوان علم المعادن في لوندرا فلم اقبل

مع ذلك كنت مضطرًا لتلك القيمة لانني خسرت كل مالي عدا الصندوق . نعم فقدت الكل . وكنت قبلا جمعت سبائكا من المعادن وقصدت ان ابقيها لاخذها معي هدية الى فرنسا لكنني عاودت فصرفتها نقودًا ذهبًا وفضة

ولما بعت كل مقتنياتي وجدت انه صار معي الفين فرنك وذلك يكفي لاعادة التجارة حديثًا وتركت نفسي معاكسًا متهددًا من الدهر الخؤون من ثم قد ظهر لي ان النحس قد اخذ نصيبه ولا يشاء ان يتركني مستكنًا آمنًا . بل حرمني من كل رتبة عالية ولو لم يكن لي في فرنسا وسائط للمعيشة لكنت تأثرت الدهر القهار وعاندته لارى هل يستطيع ان يغلبني لكنني قد تركت عائلتي في فرنسا ووسائط عديدة منعتني عن البقاء . ثم عزمت على طلب رتبة من المعارضين على المينا وبما ان القبطان اودّي احتاج وقتئذٍ لمناظر مركب استويت معه بالثمن ووعدته بتتميم تلك الوظيفة في مدة المسافة من سان فرنسيسكو الى بوردو و برست

او الى الهافر

وعتمدنا القيمة وتساهلت معه بالماهية لان كل مرغوبي كان الرجوع الى فرنسا فقط بدون تنقيص ما معي من المصاريف على الطريق

وتعين السفر في اول ايام تشرين الاول وبقي يجر ذيله الى ان بلغ اليوم الثامن عشر

وفي اليوم الرابع والعشرين من شهر ايلول تقلدت الوظيفة وابتدأت بتلك الخدمة

ونزلنا المرة الاخرى على اليابسة في السابع عشر من اكتوبر (تشرين الاول) حيث كان ينتظرني بعض من ابناء وطني للغذاء في اوتيل ريشيليو ولا يمكنني ان اشرح كيفية ذلك الوداع او اقابله بوداع الهافر بل يجب على القاريء ان يعرف اننا لم نكن في الهافر الا معضدين بالامل وفي سان فرنسيسكو مضطربين من شدة اليأس

في الغد اي الثامن عشر من تشرين الاول رفعنا المراسي وفي العشية ذاتها لم نعد نرى ذلك البر وسرنا بمساعدة الله وكانت الريح لطيفة شرقية

وفيما نحن على الطريق كنت كالغريق في بحر الافكار ويم الهموم لما كابدت من المشقات وعاينت من العذاب ثم تدرعت بالصبر الجميل وتذكرت قول القائل رحمه الله

ما احسن الثبات والتجلدا ... واقبح الحيرة والتبلدا
ليس الفتى الا الذي ان طرقه ... خطبٌ تلقاه بصبر وثقه
اذا الرزايا اقبلت ولم تقف ... فثمّ احوال الرجال تختلف
صبرًا على احوالها ولا ضجر ... وربما فاز الفتى اذا صبر
لا يجزع الحرُّ من المصائبِ ... كلاًّ ولا يخضع للنوائبِ

لا تيأسنَّ من فرجٍ ولطفٍ وقوة تظهر بعد ضعف
فربما جاءك بعد اليأس روح بلا كدٍ ولا التماس
لكل شيءٍ مدة وتنقضي ما غلبَ الايامَ الا من رضيَ

خاتمة

ماذا اقول عن تلك الارض التي هجرتها بسرعة كلية كما عجلت للرحيل اليها؟ الحقيقة

طالما ان بلاد كاليفورنيا كانت مشهورة بثرواتها الخاصة الاصلية اعني بجودة مناخها وخصب تربتها وغني حواصلها وانهارها العظيمة التي تصلح لركب السفن بقيت مع ذلك محتقرة مجهولة ومن بعد افتتاح سان جان دولوا قدمتها المكسيك الى فرنسا فرفضت اعراضها

و بعد افتتاح عاصمتها اخذتها الاميركان خوفا من ان تقع بين يدي انكلترا بقيمة خمسة عشر دولارا اي بالمبلغ التي لم تشاهد مشتراها قبلا . ولما استولى الاميركان في كاليفونيا ما كانت بين ايديهم سوى قطعة من الكرة غير مسكونة بل مهملة من الجميع عدا عن بعض من الرهبان

والنساك وبعض الهنود والرحل وبعض من المهاجرين

من ثم قد علم القارئ كيف دوى ذلك القول (التبر) وما من احد سمعه اولا الا وارتاب غير مكترثًا اما الاميركان وحدهم فقد اختبروا جودة الارض وعرفوا وتحققوا غنى بلادهم الاصلي ومن زرع وحصد مرة وقدر مقابلة توطيد المزروعات مع الحصاد يتاكد مطمئنا على دراهمه وثروته ولا يحتاج ليرفع راسه من فوق المحراث ليسمع ذلك القول (التبر)

قد اخذ من التبر مساطر للفحص ورأى القبطان فولسون منه قليلا فرفع اكتافه منذهلا متعجبا

في غضون ذلك سافر ثلاثة سعاة من قلعة سوتير مع اثني عشر هنديًا مرادهم مشترى ادوات لغسل الرمل التبري وكانت جيوبهم وقتئذ مملوة تبرا فاعرضوه على العيان وقصوا حوادثا عجيبة عن ذلك الاكتشاف الجديد الذي جعل سا كرامنتو حية مرغوبة

وتبعهم بعض من سكان المدينة عازمين خدمة المسيو سوتير الطالب فعلة لكنهم رجعوا بعد ثمانية ايام ليجمعوا او يشتروا ادوات على حسابهم الخاص وقالوا عن تلك المعادن نوادرا عجيبة غريبة اكثر من الاولين

ونمى ذلك الخبر وشاع واصاب كل سكان المدينة فاسرعوا كالمجانين مع فعلة المينا ونوتية المراكب ايضًا

وهوذا ما كتبه المسيو كولتون حاكم سونوما في التاسع والعشرين من شهر تموز: « ان حمى ونيران المعادن المتاججة قد سببت الغزو ههنا كما في بقية الامكنة ولا يوجد عندنا فعلة او حراثون بل رحل كل جمهور رجال المدينة الى السبرانيفادا . وكل انواع الادوات كالمر والمعول والمرجل ومغرفة الارض والقزازة والقنينة وعلبة العطوس والمجرفة والبراميل وايضًا

الانبيق قد طلبت جميعا رسميا و بارحت المدينة مع اصحابها »

في نحو ذلك الوقت تقريباً راى المسيو لاركان (قنصل اميركاني) بان الرحيل صار متزايدا عديدا فالتزم ان يقدم عريضة الى المسيو شانان وزير البلاد قائلا فيها ما يأتي :

« ان كل اصحاب الاملاك واصحاب الدعاوي وتجار المخازن وصانعوا الآلات والحراثون قد رحلوا جميعاً وهاجروا مع عائلاتهم الى المعادن و يوجد فعلة من الذين يربحون يوميا من خمسة الى ثمانية من الدولار مع ذلك تركوا المدينة والجريدة المنشورة ههنا كفت عن الظهور لغيبوبة منشئيها وعدد من ضباط حكومة نيو يورك هربوا من العسكرية

وقد خلي مركب من كل اهله في بلاد جزائر الصندويج واذا استمرت الحالة على هذا المنوال تصبح العاصمة في خراب مع كل المدن المجاورة لان القوارب الآتية من الخليج تترك مع بضائعها . فكيف يتصرف الكولونيل ماظون ليمنع جيشه وشعبه عن الذهاب لا اعلم ولا استطع ان اقول »

وحقيقة فان الكولونيل ماظون حرر ايضاً بهذا الصدد قائلا :

« في مدة هذه الايام كان التعب جزيلا ومن خوفي لئلا تخلى البلاد من الاهلين التزمت من مدة شهر واحد تقريبا ان ازيد الماهية والرواتب حتى للجنود ايضاً . ولم يمكننا الحصول على خادم ما او فاعل باي مهنة كانت حيث لم يرتض الواحد ان يشتغل يوميا باقل من ثمانين فرنكا لا بل يزيد المبلغ احيانا و يطلب من المئة لحد المائة وعشرة من الفرنكات فما العمل اذا في واقعة كهذه ؟

فان اسعار الغلال قد ارتفعت جدا جدا وصنعة اليد صارت غالية جدا كذلك لم يستطع احد ان يحوى خادماً ما لم يكن ربحه اليومي من

خمسمائة الى ستمائة من الفرنكات »

ايريد القارئ ان يعرف ما اجابه قنصل موتتري ؟

قد قال « لم يحدث ابدا نظير هذا الاضطراب في احدى مدن العالم لان النساء والاولاد قد تركت في الاكواخ المنفردة وذهبت الهنود ايضاً مع سادتهم او وحدهم لاخراج التبر وهذا الرحيل لم يزل متزايدا ومنتشرا ومستمرا .

ان الطرقات كلها غاصة بالرجال والخيول والعربات واما المدن والقرى فكلها مهجورة »

فلنقص حادثة جرت ولنسمع قليلا عن تلك المهاجرة وليعر القارئ اذنه صاغياً لما يأتي

كان يوجد في ذلك العصر مركب مسافراً الى سان فرنسيسكو واسم قبطانه بيروفه مونراز وقد اتى من اريكا وطلب من سان فرنسيسكو قبل زمن اكتشاف المعادن من ثم سار كعادته الجارية ليقدم تجارته السنوية وهو يجهل كلما حصل

ثم لسبب الريح التزم ان يتوقف في مينا سان دليجو مستفحصاً عن اخبار كاليفورنيا . فاجيب بان الاحوال جيدة جداً والمدينة التي لم تكن بها منذ سنتين سوى خمسة وعشرون بيتاً يعد فيها لحد الاربعائه و بوصوله الى المينا سيجد الحياة والاضطراب سائرين مماثلين لما صادفه تليماك حينما بلغ سالانت

فعند سمعه تلك الاخبار السارة ذهب وهو مملوء من الامل والفرح ليس فقط لاجل مبيع احماله بل تاكد انه سيحمل في عودته اثقالا واعراضاً وكان الوقت رائقاً وجبل الديابل ساطعاً غاصاً بالانوار فسار المركب

توًا الى جريابوينا لكن ظهر للقبطان مونراز شيء غير مفهوم حيث لم يعاين على الشاطئ انسانًا ولم يشاهد في البحر قاربًا سائرًا

فقال القبطان ماذا جرى اذًا . وما هو نشاط وفلاح ونجاح المدينة . او هل الصدى الشائع والصيت الطائر في الانحاء هو باطل . لا بل يظن ان سكان المدينة جميعًا نيامٌ حيث لم نلمح واحدًا فقط منهم فبلا شك انه يوجد عيدٌ في سان جوزه حتى ذهب الجميع اليها ثم فتح رزنامنة وفتش (السبت ٨ تموز) فلم يرَ عيدًا

حينئذٍ تمم القبطان سيره متقدمًا ظانًا نفسه في حلم وايضًا لم يلاحظ حادثة غير اعتيادية ولم يشاهد حريقة او حربًا فتحيرَّ من سبب ذلك السكوت وتلك الوحدة مع ذلك لقي المدينة موجودة بكمالها مع كل بيوتها ومنظر المينا مملوٌّ من البضائع والبراميل مصطفة على الرصيف وكل انواع السلع مرتبة امام باب المخازن والمعامل والمحلات

ثم نادى القبطان مورانز احدى المراكب الراسية . لكن ما من جواب لانها كانت خالية منفردة كالمدينة والبيوت

ففاجأه بغتة فكرٌ قائلا لعلَّ شعب سان فرنسيسكو اصيب بمصيبة ما او أبيدت الامة بالهواء الاصفر او بالحمَّى الصفراء التيفوسية

وشاء ان يتأخر مبتعدًا لكنه ارتدع عن عدم فطنته . ثم امر القبطان مورانز ان يسيروا على الشاطئ وفي الوقت عينه نظر مركبًا صغيرًا مكسيكيًا وكأنه رمقَ على حافته هيئة بشرية تتحرك

فنادى باعلى صوته واذا بنوتي مكسيكي وهو شيخ قد انتصب على ركبتيه وراسه ملتفٌ بالاعصبة

ـــ ثم دعاه القبطان مورانز قائلا انت يا صاح الذي في المركب قل

لي ماذا جرى بسكان مدينة سان فرنسيسكو

— فاجاب المكسيكي قد ذهب الجميع لبلاد التبر

— اين هي تلك البلاد سأله القبطان مورانز مستهزئا

— هي على شواطئ ساكرامنتو و يوجد ايضاً جبال واودية مملوة تبرا ولا يلزم الانسان من التعب سوى ان ينحني الى الارض و يجمع ذهبا على قدر طاقته ولو ما كنت مريضاً لما ربضت ههنا بل ذهبت مع الآخرين

وبعد برهة عشر دقائق كان مركب مورانز خاليا كالبقية لان النوتية نزلوا جميعاً الى اليابسة وساروا نحو ساكرامنتو ولم يلبث سوى ذلك العاجز المسكين وحده الذي يرمي الصاري و يربط مركبه بقرب الآخرين حسب قدرته واستطاعته .

فهكذا عند ذاك الصراخ القائل (التبر) كان الجمهور مزدحماً نحو امكنة الشغل ظنا منهم ان جمع التبر يجعلهم اصحاب ثروة وكان كل منهم ينبش الارض بهمة ونشاط وبمساعدة بعض الادوات التي قدر ان يمتلكها و بعض يشتغلون بالمعاول وآخرون بالمرّ . وهؤلاء بالكلاليب وسواهم بسحاة النار وقد وجد ايضاً من لا يملكون شيئا من كل هذه الاصناف فكانوا يحفرون الارض بايديهم

و يغسلون ذلك التراب في الصحف والجفان والمراجل واحياناً في برانيط القش

قد كانت الامم تتوارد من كل الانحاء فمنهم من امتطى خيولا والعائلات في العربات والشبان المساكين رحلوا مشاة من مسافة مائة ميل . وكل من نظر تلك الآنية المملوة تبرا نظيفا يضربه الجنون و يقع حالا من على ظهر جواده او عربته و يبادر مسرعا بنبش الارض لكيلا يخسر زاوية من

تلك الارض النفيسة او ثانية واحدة من ذلك الوقت الثمين

وحقيقة فان النموذج كان هنالك لان المسيو نيلي وكراولي قد كسبا بمساعدة ستة رجال في مدة ستة ايام كمية ما يساوي وزنه عشرة ليبرات ونصف من التبراي من خمسة عشر الى ستة عشر الفا من الفرنكات . والمسيو فاكا جمع مع اربعة رجال سبعة عشر ليبرة في مدة اسبوع واحد . المسيو نوريس جمع بمعاونة هنديّ من ناحية واحدة في وهدة عميقة ما يساوي ستة عشر الفا من الفرنكات في مدة يومين فقط

فتلك القيم الباهظة كانت تخدع الاذهان والعقول حتى ان كل من سافر الى سان فرنسيسكو يتوجه متأملا ان ينبش ويحفر بهمة ويلتقط التبر بايديه ذلك المعدن الثمين وبعد كل الخول الغير ثابت يضمحل الأمل ويخيب

ان الثروات العظيمة التي في سان فرنسيسكو هي ليست بالمعادن فقط بل المعادن هي القصد وسبب الرحيل اليها . وقد شأت العناية الالهية ان تراكم مليونا من البشر على طرف تلك الكرة لاجل نجاح المستقبل فسحبتهم جذبا اليها بطعم التبر

ثم فيما بعد ستعطيهم البراعة والشجاعة مجازاة لهم

سيكون ينبوع الثروة في كاليفورنيا في الزمن العتيد اولا حراثة الارض ثم التجارة واما التبر فيغذي من يشتغل به كالصنائع الاعتيادية وليس زيادة عن ذلك

فلا ينخدع القوم حينما يذهبون الى سان فرنسيسكو لانهم يرجعون منها بيأس .

سان فرنسيسكو — تحتوي سان فرنسيسكو على كاليفورنيا الجديدة

بكمالها — بالكاد خرجت من العدم وهي سائرة الآن بطريقها لتتمم
تكوينها ونجاحها ان روح الرب كان يرفرف على وجه المياه
واما النور فلم يكن بعد

(قد تمَّت بعونه تعالى ترجمة هذا الكتاب)

والحمد لباري الموجودات اولاً ثم اخرًا